




مكتبة و تر جمة و نشر
الدكتور أنسور السيد

الدراسة التاريخية




Bibliotheca Alexandrina
0018779



مذكرات الشبان والمستشرق الفرنسي

بريس دافين في مصر

(١٨٧٩ - ١٨٠٧)

المشرف على التحرير : جمال الفيضاني

● العدد ٢٢٣ ●

One Hundred and Twenty-Three



كتاب اليوم

مطعم أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم سعد

العدد ذو الحجة ١٤١١ هـ

٣٢٣ يوليو ١٩٩١ م

تموز

الصحافة ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الإشتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوي ٢ جنيه مصري

تجديد مجاني

دول اقتصاد الميريد العربي

والأفريقي ٢٠ دولار أمريكي لوما يعطيه

بالى دول العالم ولوزيا والأمريكيين

ولسيا واستراليا ٢٠ دولار أمريكي لوما يعطيه

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

• ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٢ ش الصحافة

الصحافة ٧٥٨٨٨٨ (خطوط)

أسعار

كتاب اليوم

المغرب ٢٠ درهم

لبنان ٧٥٠ ليرة

الأردن ٢٥٠ فلس

العراق ٧٠٠ فلس

الكويت ٧٠٠ فلس

السعودية ٧ ريال

السودان ١٥٠٠ قرش

تونس ١٢٥٠ عليما

الجزائر ١٧٥٠ سنتيما

مسوريا ٣٠ ل.س

الحبيشة ٦٠٠ سنت

البحرين ٨٥٠ فلس

في الخارج

إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة

هولندا ٥ فلورين

باكستان ٣٥ ليرة

سويسرا ٤ فلورين

اليونان ١٠٠ روبية

البنما ٤٠ غسرك

الدنمارك ١٥ دراخمة

السويد ١٥ شلن

الهند ٣٥٠ كرون

كندا أمريكا ٣٠٠ سنت

البرازيل ٤٠٠ كرويزو

نيويديا وبنغل ٣٥٠ سنتا

لوس انجلوس ٤٠٠ سنت

استراليا ٤٠٠ سنت

سلطنة عمان ٧٠٠ بيعة

الامارات ٨ درهم

قطر ٨ ريال

انجلترا ١٢٥ بنى

فرنسا ١٠ فرنك

ألمانيا ٥ مارك

سلطنة عمان ٧٠٠ بيعة

قطر ٨ ريال

انجلترا ١٢٥ بنى

فرنسا ١٠ فرنك

ألمانيا ٥ مارك

الغلاف : للفنان بريس دافين

القاهرة القديمة - قرب باب الخلق - القرن ١٩

المالكيت : محمد عفت

إلى بهاء طاهر

الذى استحضر بفنه ذاكرة مصر العميقة .
وحداني وُدّه لنشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

* « النشر إحياء الميت كالنشور
والإنشاز .

وانتشار الورق : إوراق الشجر .
والمنشور الرجل المنتشر الأمر ،
وما كان غير مختوم من كتب
السلطان » . الفيروزآبادى

جنييف سنة ١٩٩١ من القاهرة سنة ١٩٥٨

ل . ل

إدريس أفندى (١٨٠٧ - ١٨٧٩)

مؤرخ أهمله التاريخ

لا أعرف مؤرخاً مصرياً ممن عرضوا لحياة مصر في القرن الماضي تحدث عن « إدريس أفندى » أو أشار إليه ، وإدريس أفندى مع ذلك شخصية فذة هامة . لا للدور الذى أداه فى سلك الوظائف الحكومية ، وإن يكن تقلب فيها سبع سنين بين التدريس والهندسة وبين القاهرة ودمياط ، بل لنشاطه الخصب فى ميدان التاريخ المصرى ، وما ترك من لوحات ومؤلفات ممتازة تجلو روائع ماضينا ، ومن مذكرات صريحة تصور حياتنا الاجتماعية ، وتلقى الضوء على أسرار الحكم والسياسة التى اثرت فى مصير مصر الحديث .

وما زالت أوراق كثيرة مما كتب إدريس أفندى مخطوطة لم تنشر حتى اليوم ، تحفظها دار الكتب الفرنسية بباريس . وهى التى نقدم مختارات منها فى الصفحات التالية .

فَمَنْ إدريس أفندى هذا الذى أهمله التاريخ الرسمى ؟

رجل نكى مثقف يحصل العلم ويذيعه ، دون أن يكل عزمه أو يفتر إزاء ما يلقى من صعاب . رجل كريم الطبع . كبير الإباء . شديد العريكة . يعرف قدر نفسه ، ويعتد بحريته قبل كل شئ . وهذه كلها صفات أهله بجدارة لأن يعيش مغموراً ، وإن يموت فقيراً ، وقضت عليه بأن يهمله التاريخ الرسمى . فلو كان يتقن فن التملق والزلفى والمداينة إلى جانب ما اتقن من فنون . ولو كان يحسن الطاعة والإغضاء . ويعرف كيف يخفّض جناح اللين للسادة ، إذن لراى الرضا ، وترقى من رتبة إلى رتبة . ووصل فى ركاب ذلك العهد إلى المنصب العالى . والثراء العريض . والمكان العزيز فى التاريخ الرسمى .

يعيدنا إدريس أفندى إلى ذلك العهد الذى بدأ فى مصر يتولى محمد على . واتصل بتعاقب خلفائه من بعده . وقد عاصر إدريس خمسة من أولئك الولاة : محمد على ، وإبراهيم ، وعباس ، وسعيد ، وإسماعيل : وعرف الأسرة الوالية من قريب معرفة مباشرة . إذ اتخذ إبراهيم مربية لأولاده أيام محمد على .

* * *

وحياة ، إدريسنا ، هذا قصة طريفة لا يعوز راويها أن يلجأ إلى الصنعة ووسائل التشويق لاجتذاب القارئ . فهي قصة تكفى وقائعها إثارة شغفنا واهتمامنا إذا سردت سردا . وهى تجرى على أرض مصر الإفريقية ، ولكنها تجرى أيضاً على أرض أوروبا وآسية . وهى تمتد فى الزمان اثنتين وسبعين سنة منذ أن ولد بطل القصة عام ١٨٠٧ حتى توفى عام ١٨٧٩ .

وقد ولد بطل القصة فى فرنسا ، فى إقليم الفلاندر ، ولم يسمه أبوه إدريس . فقد كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا قراراً من جور الملك شارل الثانى . بل عرف صاحبنا باسم پريس دافين (Prisse d'Avennes) . وهو تحريف للاسم الانجليزى پرايس أوف أيفن (Price of Aven) . وكان أبوه مفتشاً لخبايا الأمير تاليران . لقى الموت عام ١٨١٤ . إذ تطوع لتمريض جنود نابليون المصابين بالتيفوس ، فقضت عليه العدوى . ودخل الفتى عام ١٨٢٢ . بعد دراساته الأولى - مدرسة الفنون والصنائع بشالون . وتخرج فيها عام ١٨٢٥ بإجازة المهندس المعماري . وهو فى التاسعة عشرة من عمره . واصغى إلى ما هتف فى صدره من طموح الشباب وحب المغامرة ، فمضى يحارب فى صفوف ثوار اليونان فى العام التالى . ومن هناك أبحر إلى الهند حيث أصبح سكرتيراً لحاكمها العام . ثم نراه بعد ذلك بقليل فى فلسطين . ويبلغه حديث محمد على وحاجته إلى الإخصائيين الأوروبيين يستعين بهم لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة ، فتصور له أماله وحميته أنه سيجد على ضفاف النيل - تلك الأرض البكر التى ينشدها ليؤدى فيها طاقته ، ويدرك ثمرة جهده ، - كل ما يصبو إليه من رغد العيش ، وشرف المنصب ، والجاه الذى ينتظر العاملين فى عزم وإقدام .

وها هو ذا يلتحق بخدمة « الباشا » عام ١٨٢٩ ، فيعينه مهندساً للرى ، ثم استاذاً للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفي الوقت نفسه مربياً لابناء إبراهيم . وإذ ذاك يقدم للوالى « مذكرة في اهم الاعمال التى يمكن تنفيذها في الدلتا » ، ومن بينها حفر ترعة تمتد من الاسكندرية إلى القاهرة ، وإنشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم .

هكذا تبدأ القصة بداية سعيدة : فالأيام تبتسم لصاحبنا ، وتعدده خير الوعود . ولقد غدا يشق طريقاً ناجحاً موفقاً بفضل ذكائه ، وقريحته الفطنة إلى الحياة العملية ، ومنايرته الشديدة . ولكنه بالرغم من هذا كله - أو لهذا كله - لا يلبث حتى يصطدم هو وعبد الله « بك » ناظر مدرسة الخانكة . وقد روى ابنه تلك الحادثة . قال :

« ذات صباح - وكان ذلك يوم ٢١ من يولية سنة ١٨٢٩ - أرسل « عبد الله بك » رئيس المعسكر فى طلبه وكلفه طبع موسيقى الكتائب نظراً لمعارفه الخاصة ، ولعدم وجود من يقوم بهذا العمل ؛ فرفض پريس محتجاً بأن هذه المهمة لا تدخل فى دائرة اختصاصه . فغمره فى الحال سيل من الشتائم البذيئة ، وصدر الأمر بأن يكبل بالحديد إلى أن يعدل عن رأيه ويمتثل . ولما ظل رابط الجاش ولم تؤثر فيه جميع تلك التهديدات ، اجتد غضب « البك » ، وأصدر أمراً همجياً بجلده بالكرباج .. وعاد پريس إلى بيته ، فأرسل استقالته إلى نظارة الحربية ، ثم وضع فى حزامه خنجراً ومسدسين ، ومضى يحمل بنفسه استقالته إلى « البك » . وإذ دخل عليه القاما تحت قدميه قائلاً له : إنه بهذه الاستقالة التى أرسل منها نسخة إلى القاهرة قد استرد حريته ، وإنه خليك بأن يرميه بالرصاص فى رأسه دون أن يستطيع واحد من حرسه أن يمنعه . إذا هو حاول - وإن كان ناظراً - أن يعتدى عليه . وشده الناظر فلم يجر جواباً . أما پريس فامتطى حصانه ، وبلغ نظارة الحربية حيث اعتذر إليه المسئولون ،

غير أن تصرفاً من هذا القبيل لم يكن من شأنه فى ذلك العهد أن يفتح سبيل التقدم والترقية أمامه ، ولا أن يحقق له ما كان ينشد على ضفاف النيل من رغد المستقبل ، وشرف المنصب ، والجاه الذى يكافئ جهد العاملين فى عزم وإقدام . منذ ذلك اليوم ، انخفض نجم پريس فى سماء مصر . نقلوه إلى دمياط استاذاً للتحصينات فى مدرسة المشاة . ولكن

همته لم تفتقر . بل راح يستطلع شمالي الدلتا ، لا سيما منطقة بحيرة
المنزلة ، ووضع ، مذكرة في تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها ،
قدمها كبير الرجاء إلى الوالي ، إلا أنها لم تجد حظوة لدى جنابه العالي ..
ولا نعلم من أمر إدريس في السنوات التالية إلا ما بذل من نفسه للمرضى
والمصابين في وباء الكوليرا والطاعون اللذين فتكا بمصر عام ١٨٣١
وعام ١٨٣٤ ، فقد نهكه العناء حتى أشرف به على الموت .
هناك خالط الشعب المريض الجائع البائس ، وفهم نفوس المصريين ،
ولمس تحت الأسماك التي ألغاهم عليهم الحاضر الوحش تلك الصفات
الكريمة العريقة التي سجلتها حضارتهم من قديم . وأقبل عليهم في
شغف ، فتعمق مجتمعهم ، ودرس تفاصيل حياتهم ، وأتقن لغتهم . ودعاه
الجميع باسمه الذي تحول من « إدريس » إلى « إدريس » : « إدريس
أفندي » .

ودفع إدريس أفندي اهتمامه بحضارة هذا الشعب إلى دراسة
الهيروغليفيّة . وكان شامليون قد حل رموزها منذ سنوات قليلة . ومالات
حياة المصريين حياته ؛ فهو يفكر في ماضيهم كما يفكر في حاضريهم وفي
مستقبلهم . وما ناله يظل محدوداً بواجب ضيق صغير ؟ إن الإنسانية
أعرض من أن يربطها سلك الوظيفة الرسمية . وإنه ليزدهد في هندسة الري
الحكومية وتدريس علم عقيم . فيقدم استقالته عام ١٨٣٦ . ليفرغ إلى
ما بات يستغرقه من التاريخ لهذا المجتمع الذي يعيش فيه .

ها هو ذا في زيه العربي ينتقل بين الفلاحين من قرية إلى قرية ، ومن
الدلتا إلى الصعيد ، ومن الصعيد إلى التوبة . ها هو ذا يقف مبهوراً أمام
بوابة أبي سنبل الرائحة . وها هو ذا في عام ١٨٣٨ يستقر في الأقصر ،
موجهاً جهوده إلى دراسة منطقة « طيبة » . أو يستقر حلقاً ؟ إنما حياته في
تلك الأثناء نضال متصل كل يوم ضد عجرفة المدير . وتسلط موغلي
الباشا . واستشراء عصابات اللصوص . ولكنه يحب العراك والكفاح
والعيش في خطر . عليه إذن أن يحمي نفسه ، ويحمي رجاله . بل ويحمي
تلك الآثار العريقة من معمل البارود الذي أنشاه الباشا بالكرك .
ولم يكن بد من أن يلتحم هو والسلطة الغشوم مرة أخرى ، في
مارس ١٨٤١ : فقد قبض ناظر الأقصر على واحد من رجاله بغير وجه حق ،

وامر بضربه بالعصا ، ورفض إطلاق سراحه ، فلحقت « إدريس أفندي » ، وضرب الناظر . وهنا تقوم قيادة الناظر التركي وخفره ، ونترك لابن إدريس أفندي إتمام رواية الواقعة ، فهو يقول :

« على الرغم من انه كان بمفرده ضدهم جميعاً ، فقد أفلح في ان يذود عنه أولئك الذين أخذوا بتلابيبه ، إذ ضربهم في وجوههم بقبضة يده ، ولكنهم تكاثروا عليه بعد ذلك من كل جانب . وحين هوت عليه العصا الأولى أمسك عن استخدام سلاحه ، غير ان العصى تتابعت بلا انقطاع ، فبدد وقعها صوت ضميره المتردد ، واندفع شاهراً خنجره على ذلك التعس الذي ضربه في تلك اللحظة ، فجرحه جرحاً بليغاً ، واصاب اثنين آخرين إصابة أهون . وإذ ذاك هجم عليه الجميع ، وكبلوه ، وامر الناظر بحبسهم . وبينما هم يكبلونه ، أتى لئجده - بمجرد ان بلغه الأمر - فرنسي سائح كان يقيم عنده أياماً ، هو « الكونت دي فرجين » ، فطوقوه في الحال ، وسحبوه من لحيته إلى السجن . حيث وصل دامي الجسم ، هو والخدم الثلاثة الذين كلنوا في صحبتته ، ثم قيدوهم جميعاً بالسلاسل . »

وفي قاع ذلك السجن المظلم ، ظل إدريس أفندي وضيغه ورجالهما أربعة أيام وأربع ليال ، وسط الأوساخ العفنة التي اختلطت بتراب الأرض ، لا يبلغهم نور ولا هواء ، بل لا كسرة من خبز ولا جرعة من ماء ، مشاطرين في هذا كله بلاء نحو من عشرين فلاحاً فقيراً ، لم يكن لهم من ذنب إلا فقرهم الذي لم يختاروه وعجزهم عن دفع الضرائب للباشا . ولولا توسط الرسام « تستان لوت » ، معاون شامبليون في دراسة الآثار ، وقد أقبل في مهمة رسمية ، ما أفرج عنهم .

ويزعم الأديب الفرنسي ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذي زار مصر في ذلك العهد وعرف إدريس أفندي أن إدريس أفندي قد انكسر في هذه الواقعة فكه وإحدى ذراعيه .

ونحن نشك في صدق رواية ماكسيم دوكان ، فهو شخص مشهور في الأدب الفرنسي بنفسية خاصة تنحرف به إلى المبالغة والتحويل وتشويه الحقيقة في سبيل التأثير على القارئ . ولكن الذي لا شك فيه هو أن إدريس أفندي ظل في الأقصر مرفوع الرأس يواصل أبحاثه بعزيمته المعهودة التي لا تنتهي ولا تكل .

وقد أدت أبحاثه في تلك الفترة بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٣ إلى نتائج يعرف مؤرخو الآثار المصرية أهميتها . فقد يكفيه فضلاً أنه حفظ بعض آثار « طيبة » العريقة من الغناء . وكيف كان ذلك ؟ ذات يوم ، لسد حاجة طرأت على معمل البارود بالكرك ، أقبل العمال يقطعون الأحجار من الأعمدة الضخمة القائمة في جنوب الهيكل الجليل ، أعمدة « حار محب » التي كانت تعرف إذ ذاك باسم « أعمدة حوريس » .

وكان إدريس الفندي أول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنحوتة عليها من عهد أخناتون ، ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستور لوت . . وهو يكتب (في يناير سنة ١٨٤٠) لعالم الآثار الانجليزي ويلكنسون عما حل بها فيقول :

« كانت الأحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم ، فلاختصار العمل عمدوا في تكسيدها إلى استعمال البارود . وحين وصلت إلى المكان ، كانوا يتأهبون لإشعال بعض الذبالات . فاستمهلهم لحظات ريثما أرسم أيا هول منحوتاً على كتلة طولها متران تقريباً وقد غمرته أشعة « اتون رع » . ولم أكد أتم رسمى حتى تطاير الحجر شظايا ؛ ولكن لحسن الحظ بقي رأس ذلك الفرعون المعبر - وإن كان قد تشقق - على قدر من السلامة أتاح لى أن أظبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تهنيت رسمى على مهل . .

وقد يكفيه فضلاً بين علماء الآثار المصرية أنه كشف في معبد « خونسو » اثنتى عشرة غرفة . وأنه كشف البردية الهيراطيقية التي تحمل اليوم اسم بردية « پريس دافين » . ولكنه لم يقف أعماله في ذلك الميدان عند هذا الحد . بل واصل أبحاثه في شغف ومثابرة دائماً . كان الصعيدى العريق رفاعة الطهطاوى على إثر عودته من بعثته في فرنسا ، حيث أقام خمس سنين أيقظ فيه خلالها حنئنه إلى بلده وأطلاعه على أوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنياً متاججاً مستنديراً . قد طالب محمد على بحماية آثار مصر القديمة ، فصدق الوالى على أمر صاغة رفاعة بمنع على منع التصرف فى الآثار . غير أن الوالى فى حاجة إلى أحجار لبناء معامل السكر من ناحية ولتموين معامل البارود من ناحية أخرى . فيفرض على الفلاحين أن يقدموا له عن كل فدان مزروع قنطراً من الأحجار . ولا بأس على فلاحى الصعيد من أن يقطعوا له الأحجار من

هذه الأعمدة الضخمة والتماثيل الكثيرة التي تملأ منطقتهم ؛ فترك أحجار مشذبة أصلح للبناء وأقرب منلا من بطون الجبال ؛ بل كان رجال الإدارة في الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل الباشا . ويرتفع لذلك علماء الآثار في أوروبا ، فيكتب ويلكنسون في لهفة لإدريس أفندي يسأله « معلومات عن التهديم الذي حدث في الكرنك ، ويرجوه أن يبذل لرسم » إذا لم يكن قد فات الأوان ، أساطير الفراعين القدماء التي يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة في هذه المعالم ، ويهرع ليهسيوس على رأس بعثة بروسية كانت قد اجتثت منذ سنوات روائع النقوش والرسوم من جدران مقبرة سيتي الأول بوادي الملوك ونقلتها إلى برلين ، وهو يهرع هذه المرة لينقل « غرفة الملوك » الشهيرة في الكرنك (من آثار تحوتمس الثالث) ، فيسبغ إدريس أفندي بأيام ، ويبذل أعنف الجهد حتى يفصل أحجارها ، ويحملها إلى باريس حيث يحفظها متحف اللوفر .

* * *

ويعود إدريس أفندي إلى مصر عام ١٨٥٨ ، أي في أثناء ولاية سعيد . فيجوب البلاد من جديد مسجلاً مشاهداته وملاحظاته . مصوراً المعالم والآثار بالآلة الفوتوغرافية ، أو راسماً إياها بقلمه وألوانه ، أو صانعاً لها قوالب متقنة ، حتى يجتمع له من ذلك كله محصول ثمين من المعلومات الجغرافية والبشرية والتاريخية والفنية واللغوية والاجتماعية ، مادة غزيرة هي التي استمد منها فيما بعد كتبه القيمة عن الآثار المصرية ، وغذى بها الصحف والمجموعات الكثيرة التي راح ينشرها للتعريف بمصر .

وقد وقف أيامه وجهده على هذه المهمة التي غمرته واستغرقته . عرضت عليه الحكومة الفرنسية منصب السفير في تركيا ، فاعتذر مؤثراً مواصلة منشوراته ومطبوعاته التي لم تكن لتمنحه مثل جاء السفير ومرتبته . وإنها لتضحية تعرفها له مصر اليوم . وقد أصبحت كتبه عن الفن نادرة جداً ، وفي مقدمتها كتاب « الآثار المصرية ، Les Monuments Egyptiens) الذي يضم خمسين لوحة من القطع الكبير ، ويعتبر مكملاً لكتاب شامبليون الذي ظهر عام ١٨٤٥ بعنوان « آثار مصر والنوبة » ، Mouments de l'Egypte et de la Nubie . أما « تاريخ الفن المصري » .

ماخوذاً عن الآثار ، منذ أقدم العصور إلى الحكم الرومانى ، Histoire de l'Art Egyptien d'Après les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu' à la domination romaine. مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبير . وله أطلس آخر من مائتى لوحة فى ثلاثة أجزاء عنوانه « الفن العربى » ، ماخوذاً عن آثار القاهرة منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر .

(l'Art Arabe, d'après les Monuments du Caire depuis VII^e siècle jusqu' à la fin du XVII^e siècle.)

إن دراسة الآثار المصرية والعربية التى كانت تحبو فى ذلك الوقت ، مدينة لهذا العالم الفنان بتقدمها خطوات موفقة إلى الامام : فرسوم شامبليون واعوانه كانت رسوماً مجردة ، فلترة ، هندسية ، لا تؤدى إلا الخطوط والأبعاد والأحجام ، أما رسوم إدريس افندى أو پريس دافين فقد بعثت الحياة النابضة الملونة فى الماضى السحيق وازدادت إلى صورته المعروفة صوراً مجهولة .

ولم يهتم بالآثار العربية قبل إدريس افندى أو پريس دافين إلا مهندس معمارى من اهل مرسيليا سبقه إلى زيارة مصر ويدعى « پاسكال كوست » رسم فى دقة موضوعية جافة أيضاً عمارة الفاطميين والأيوبيين والمماليك . ولكن إدريس افندى أو پريس دافين نظر من بعده إلى المساجد والزخرفات والآثار نظرة إنسانية جلتها فى مظهرها ذلك الأليف القريب من نفسه .

وأما مقالات إدريس افندى أو پريس دافين وابحائه الكثيرة فى الصحف والمجلات والمجموعات الدورية فيضيق هذا المقام عن الإحاطة بها : ففى هذا كله اتفق الرجل حياته . واضطرت زوجته إلى أن تباع بعض الانجليز جزءاً كبيراً من مخطوطاته وأوراقه ورسومه ومكتبته الثمينة . وهو على فراش الموت لا يدري ماذا يدور من حوله .

ولعل أهم أوراقه مع ذلك هى التى بقيت فى فرنسا ، واثت إلى دار الكتب بباريس ، أوراق يضمها اثنا عشر مجلداً ، وتتصل بدراسة مصر من مختلف النواحي . وقد استوقفنا بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبلغ كل منها نحو أربعمئة صفحة ، تحوى كثيراً من قصاصات الجرائد المعاصرة ، وكثيراً من الصفحات المخطوطة . وكثيراً

من الرسوم ، واحدها بعنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها .
(Politique et administration de l'Egypte moderne) والآخران بعنوان
« أخلاق وعادات » (Moeurs et coutumes) .

ويتضح للنظر في هذه المجموعة الكثيفة التي تتناول وصف مصر
الحديثة ، أنها المادة الأولية التي أعدها إدريس أفندي لإنشاء كتاب جامع
عن مصر كما عرفها . ونحن نجد بالفعل مشروع ذلك الكتاب وخطته في
الصفحات الأولى من أحد هذه المجلدات . وتنبئنا تلك القائمة
للموضوعات بأن المؤلف قد انتوى تصنيف كتاب كبير من عدة أبواب
وقصول :

فالباب الأول عن « القطر » وينقسم إلى فصل عن « المناخ » ، وفصل
عن القاهرة والإسكندرية ، وفصل عن مجرى النيل ، وفصل عنوائه « مصر
كما هي » .

والباب الثاني عن « الناس » ، يفتحه فصل عن سكان مصر والأجناس
التي اختلطت على هذه الأرض ، يليه فصل عن النساء المصريات ،
ثم فصل عن الرجال وقناعة الشعب ودفع الضريبة بالعصا . ثم فصل عن
الفلاحين والصناع وفصل عن الأوروبيين في مصر .

والباب الرابع وصف للأسرة والزواج والحياة العائلية .
والباب الخامس عن « الحكومة والإدارة » فيه فصل عن الحكومة ،
أي النظار والموظفين ، وفصل عن التقسيم الإداري ، وفصل عن العدالة
المفقودة . وفصل عن الجيش والبحرية والتجنيد ، وفصل عن التعليم .
وهناك باب سادس عن الدين ، أي الإسلام والمسيحية .

وباب سابع عن المالية والضرائب وميزانية الإيرادات والمصروفات
والديون التي تورط فيها إسماعيل .

ثم باب أخير عن الوالى ينقسم إلى فصل عن حياته الخاصة ، وفصل
عن حياته العامة وسياسته الخارجية والداخلية .

فى هذا الاستعراض العاجل لعناصر الكتاب الذى أعد ملأته إدريس
أفندي ولم يفرغه فى قلبه الأخير ما يصور لنا مدى غزارة ما تحويه تلك
الأوراق الشعثاء . وقد اخترنا من بين تلك الأوراق المخطوطة صفحات
طريفة عن المجتمع المصرى وولاة مصر فى القرن الماضى . صفحات

مطوية لم يتح لها أن تنشر حتى اليوم لأسباب كثيرة لعل في مقدمتها تلك الصراحة التي تحدث فيها إدريس أفندى عن أسيرة محمد على ، وتلك الجراحة في إذاعة أسرار القصور العامرة بالوان المجون والحماسة والسرف .

ومن هنا كانت مذكرات إدريس أفندى تختلف عن كتب المؤرخين الرسميين . بل تعارضها في أغلب الأحيان . ولقد كان هذا الرجل الحر المستقل يعي ما تؤدي إليه مدائح الأقلام المرتزقة من تشويه الحقيقة في التاريخ ، ولذلك توخى دائماً ذكر الوقائع ، ووصف العصر والقصر ووصف شاهد عيان .

ولكل شاهد عيان موضع خاص يقف فيه ليرصد الأحداث والأشخاص والأشياء . وقد رأينا كيف تنقل إدريس أفندى سبعة عشر عاماً في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ومن بيئة « الباشوات » الحاكمين إلى بيئة الشعب المحكوم .

كيف عرف أهل القصور والدواوين من ناحية ، وكيف عاش بين أهل الدلتا والصعيد من ناحية أخرى ، ناظراً هنا وهناك ببصيرة البحاث الناقد ، مشاطراً أهل الوادي حياتهم ، مصطدماً بالسلطة الغشوم كلما مست حرية واستقلاله وكرامته . نظرته إذن هي نظرة الدارس الممخص ، والأخ العاطف على إخوة له في الإنسانية جار عليهم الدهر ، والرجل الواقف بالمرصاد لردائل السلطان المستبد .

ولهذا كله كانت مذكرات إدريس أفندى وثيقة تاريخية قيمة للمهتمين بحياة مصر الحديثة . وهي إن لم تكن تاريخاً كاملاً لقرننا التاسع عشر ، فإنها تدعونا إلى إعادة النظر فيه وكتابته بأقلام واعية محققة مخلصه للعلم والوطن ، لا كما كتبته أقلام ناعمة معطرة لحساب أسيرة أجنبية عاثت في بلادنا فساداً ، وضيعت حقوقنا بين دول العالم ، وسخرت أباعنا سخرة العبيد .

وفي مذكرات إدريس أفندى - فضلاً عن قيمتها التاريخية - طلاوة القصة ، ودقة الملاحظة ، وصدق التصوير والألوان ، وشجون الحديث والألفة والخبرة والثقافة ، وسعة الأفق الإنساني ، وإحساس مرهف بالحياة الكامنة في تفاصيل مجتمعنا المصري ، وفهم عميق لروحنا القومي الأصيل الذي نحى اليوم بعثه ، وانطلاقة من إسماره ، وتوثبه إلى أفق الحرية والكرامة الموفورة .

وإذا اجتمعت هذه الصفات أو شيء منها في أوراق مخطوطة مطوية
مهملة ، كان ذلك خليقا بأن يخرجها إلى النور .
لقد أنصف إدريس إندى مصر ، فمن حقه عليها أن تنصفه .



- نشرت صفحات من هذا الكتاب في مقالات الدكتور أنور لؤي التاكي :
- « إدريس إندى مؤرخ أهمله التاريخ » . المجلة ، عدد ١٥ مارس ١٩٥٨ .
ص ٤٧ - ٥٩ .
 - « إدريس إندى وظالم ياشا » . الهلال ، عدد ١١/٦٦ ، نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٦ - ١٥ .
 - « من مذكرات إدريس إندى : محمد علي وأسرته صفحات مجهولة » . المجلة ،
عدد ٩٢ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ - ٢٦ .



دار مصرية من الداخل — لوحة
منشورة في كتاب إدريس أفندي — الفن العربي

تقديم :

إدريس أفندي وظالم باشا

« إدريس أفندي » مستشرق فرنسي يكاد يكون مجهولا من الكثيرين ، برغم مواقفه المجيدة وكتاباتة الجريئة وفنه البارع ، بل لعله ظل مغمورا لأنه أنفق حياته في البحث عن فنون حضارتنا العريقة ! ولد عام ١٨٠٧ ، في مقاطعة الفلاندر بفرنسا . ولم يسمه أبوه « إدريس » إذ كان من أسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فرارا من جور الملك « شارل الثاني » . بل عرف باسم « بريس دافين ، Prisse d'Avennes » وهو تحريف فرنسي للاسم الانجليزي Price of Aven وكان أبوه مفتشا للغابات التي يملكها الأمير تاليران . وحين أصيب جنود نابليون الذين دوخوا أوروبا ، بالتيفود عام ١٨١٤ ، تطوع الأب لتمرير إحدى الفرق ، فقصت عليه العدوى .

* * *

وفي عام ١٨٢٢ دخل : بريس مدرسة الفنون والصنائع بمدينة « شالون » ، وتخرج في التاسعة عشرة من عمره مهندسا معماريا . وكانت مغامرات نابليون قد غيرت مفهوم الحدود الجغرافية في مخيلات الشباب ، فدفع الطموح صاحبنا إلى الانخراط في صفوف ثوار اليونان الذين نهضوا ينزعون استقلالهم من جيوش السلطان وإبراهيم باشا .

* * *

ثم أبحر إلى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها العام . وعاد بعد ذلك بقليل إلى فلسطين . وهناك بلغه أن « محمد علي » في حاجة إلى أخصائيين أوربيين لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الري والزراعة ، فالتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ ، مهندسا للري في أول الأمر ، ثم استأذا للطبوغرافية في مدرسة أركان الحرب بالخانكة ، وفي الوقت نفسه مربيا لابناء إبراهيم .

ولكنه لم يلبث ، لاعتداده بنفسه ، ولشدة إيمانه وشغفه ، أن اصطدم بمناظر المدرسة التركي المتغطرس « عبد الله بك » . وبعد ملحمة عنيفة هوى فيها الكبرياج على جسمه ، فأبرز خنجره ومسدسه متحديا القوة بالقوة ، قدم استقالته ، فثقله ناظر الحربية إلى دمياط ، استأذا للتحسينات في مدرسة المشاة . وفكت بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ أوبئة الكوليرا والطاعون ، فأنيرى « بريس » لتمرير المصابين وصارع الموت الذي أوشك أن يصصره .

واخذت تلك التضحية نفس الرجل الكريم .. لقد عاشر شعبا مريضا جائعا بائسا ، وهو بعينه هذا الشعب الذي صنع الحضارة منذ فجر البشرية . :. وأحب « بريس » المصريين ، وفهم مشاكلهم ، وميز جوهر صفاتهم تحت الأسمال التي ألغاهم عليهم الحاضر المظلم ، وتعمق مجتمهم ، وتامل تفاصيل حياتهم ، وتكلم لغتهم ، واهتم بأماسيهم ، وانغمز في هذا كله حتى ضاقت على إنسانيته المتفتحة حدود الوظيفة الصغيرة . فاستقال عام ١٨٣٦ ، وتحرر من القيود الرسمية ، وتفرغ لدراسة الهيروغليفية ليجتلى تاريخ هذا المجتمع الذي يعيش فيه ، وكيف تطور من حال إلى حال .

وارتدى الزي الشرقي ، وسمى نفسه « إدريس » بدلا من « بريس » وجلب قرى مصر منتقلا من الدلتا إلى الصعيد ، بين الفلاحين الذين يأنسون إليه ويلقبونه بـ « إدريس أفندي » . وبعد زيارة « لابي سنيل » أقام في الأقصر لدراسة « طيبة » ، ولحمالية

ما أمكن من أعمدة الكرتك التي أقبل عمال الباشا يكسرونها للتغذية
معمل البارود - ولم يكن بد - وهو رجل شديد العريكة حريص على
كرامته دائما - من أن يصطدم مرة أخرى ، بناظر الأقصر التركي
وخفره .

لقد أدت أبحاث « إدريس أفندى » فى التاريخ المصرى القديم
وفى تاريخ العمارة العربية إلى نتائج كبيرة يعرف المختصون
أهميتها ، ودورها فى تقديم تلك الدراسات . وإذا لم يتسع المقام هنا
لعرضها ، فحسبنا أن نشير إلى « الألبومات » الضخمة الثمينة التى
سجل فيها الفنان بالرسوم الدقيقة والألوان المتقنة روائع الفن
المصرى خلال مختلف العصور . وجمع « إدريس أفندى » طوال
السبعة عشر عاما التى أنفقها على ضفاف النيل - وكان قد سافر إلى
باريس أثناء حكم عباس وعاد بعد تولى سعيد - مادة غزيرة عن
مصر الحديثة ، استمد منها المقالات التى راح ينشرها فى الصحف
والمجموعات العلمية ، مؤثرا مواصلة منشوراته ومطبوعاته على
منصب سفير فرنسا فى تركيا ، الذى يقال أن حكومة نابليون الثالث
عرضته عليه . وحينما اشتد عليه المرض فى فرنسا عام ١٨٧٩ ،
اضطرت زوجته إلى أن تبيع لبعض الانجليز جانبا من مخطوطاته
وأوراقه ورسومه ومجلدات مكتبته النادرة .

* * *

على أن أهم أوراقه بلا شك هى التى بقيت فى فرنسا ، وألت إلى
قسم المخطوطات بدار الكتب بباريس . هناك اثنا عشر مجلدا خلفها
« بريس دافين » ، تتناول دراسة مصر من مختلف النواحي . وقد
طلعت بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ، يحوى كل منها
نحو أربعمئة صفحة ، وتضم خليطا من الرسوم والمذكرات
المخطوطة وقصاصات الجرائد المعاصرة ، ويحمل أحدها عنوان
« سياسة مصر الحديثة وإدارتها » والآخر عنوان « عادات
وأخلاق » . ويتضح للناظر فى هذه المجموعة الشعثاء أنها المادة

الأولية التي أعدها « إدريس أفندى » لإنشاء كتاب مفصل عن مصر كما عرفها ، ولكن الأيام لم تمهله حتى يفرغه في قلبه الأخير .
ولن نناقش هنا فكرة هذا الكتاب الضخم الذي لم يكتبه صاحبه وحسبنا أن نعى ما سجله هذا الرجل الحر المستقل من أسرار الولاة الذين عاصروهم وعاشروهم ، فقد اتصل بهم - من محمد على إلى إسماعيل - ووصف أساليب حكمهم وخفايا حياتهم ووصف شاهد عيان .

ويتميز حكم « محمد على » في مذكرات « إدريس أفندى » بطابع القسوة والظلم والإرهاب . فإن منظر تعذيب أفراد الشعب تعذيباً رسمياً منظماً كان يتكرر في كل يوم ، في كل قرية ، وفي كل مدينة ، بل وفي أسواق القاهرة ، وقد صور « إدريس أفندى » موكب « المحتسب » وعدالته الهمجية في هذه السطور :

« يطوف المحتسب ، وهو الأغا المكلف بالإشراف على الأسواق ، بالمدينة على صهوة جواده ، يتقدمه « القواسون » حاملين ميزاناً ضخماً ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة ، فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التي يستخدمها الباعة ، ممتحناً من يختاره أو تختاره المصادقة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئاً من المواد الخدائية ، ليعلم الثمن الذي دفعوه ، والوزن الذي أعطى لهم ، ومن أي بائع كان ذلك ، ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش في الوزن أو غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا في الحال . فيقبض خدمه على المطفف ، ويطرحونه أرضاً ويشدون ساقيه في « الفلقة » ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مسلحين بالكرابيج مائتي أو ثلثمائة ضربة يعدها الأغا في هدوء على حبات مسبحة الوردية . ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلاً بالنبي . ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز مالهديه . وفي نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه

إلا محمولاً أو متوكلاً على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .. وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها ، وتوقيع العقاب فى أكثر الأحيان يوحىبه التحيز . فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة فى ابتزاز الأموال أو اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يفعلون ذلك فى أغلب الأحيان .

ويتحدث عن تعذيب الفلاح ، فيقول :

« ان الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، أصبح فريسة ضغط جميع موظفى الوالى ، من أعلاهم إلى أدناهم . فإذا كان الفلاح يملك قروشاً ، طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، فإذا قاوم كان جزاؤه الكرباج أو السجن . ولا يستطيع أى إجراء أن يقلقه من العقاب البدنى ، فهو عقاب مباشر : وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه . »



ثورة الصعيد

ويقول « إدريس إقندى » ان الفلاحين اطلقوا على محمد على لقب « ظالم باشا » لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدي مأموريه ، فمن الكى بالقرميد الأحمر المحمى فى النار إلى تسمير أذانهم ، إلى تمزيق أجسامهم بضرب الكرباج . ويروى ثورة أهل الصعيد التى أدت إليها تلك القسوة : بدأت هذه الثورة على الوالى ورجاله فى بلدة « دراو » فى أوائل عام ١٨٢٤ . وكانت إحدى فرق الجيش فى طريقها إذ ذاك إلى « سنار » فانضمت إلى الفلاحين ، وبلغ عدد الثائرين نحو عشرين ألفاً . غير أنهم تشبثوا بعد بضع معارك لعدم تنظيم صفوفهم تحت إمرة قائد خبير .

وكان نَزَق الباشا وحده هو مصدر الظلم أحيانا . وإدريس يورد
لنا هذا المثل على استبداد يشق إلى حد عجيب :
« من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد علي من أوربا ، كان
غرس الزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع
تغمره أشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ،
فازهرت وأينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن أجنبيا تحدث
يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد علي للمرة الأولى أنها
جميلة ، وأمر بأن توضع النبتة في صندوق ، وتُنقل تحت شجرة
الجميز التي تظل كشكه . وهنا اجتريا البستانى على الاعتراض بأن
الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب الوالى جبينه وأقسم أن
يدفن حيا ذلك الأرعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التي
استأثرت فجأة بإعجابه . وفى اليوم التالى كانت الداليا موضوعة
بعناية في صندوق عريض في ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد
اعتراها الذبول كانت قد أخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة .
فجىء بالبستانى ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالقه
ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بأن النبات
لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، أخلى طرفه . »



ظالم باشا

ويتحدث إدريس أفندى عن مكان القانون فى دولة
محمد على ، فيقول :

« اننا نتورط فى الخطا إذا قلنا ان فى ذهن
الباشا افكارا منطقية عن العدالة وأن فى قلبه حبا
حقيقيا لها ، فالقانون الذى اذاعه محمد على ،
والذى اطلبه المطلبون فى الإشادة بحكمته
وتمشييه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو
الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك توضيحية
من ظالم باشا بصيغته ، فزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين
حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل القانون بعد تشريعه .
وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى
مناسبات نادرة ، فى الأحوال التى لم تكن فيها مصالح الباشا
المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه » .

ويستطرد إدريس أفندى قائلا : « ودون أن نستعرض تلك
السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن
نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة
فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود أن يدفع مرتبات لأحد ،
لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر امره بحيث
يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون
والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء فى تحصيل
مرتباتهم واجورهم . وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم
مرغمين فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع
الباشا ، مرغمين بعد ذلك - للحصول على نقود - على أن يبيعوا
بئس بئس السلع التى حسبها عليهم الباشا بئس باهظ » .

« ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على في سبيل النوال دون أن يفتح كيسه . وانه ليدل على خصب قريحته في التلقيات المالية : فيعد أن أخذ الأوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمرت العتاد الذي كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التي يموت حاملوها من الجنود ، وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التي أسفر عنه هذا الإجراء الذي نفذه المرءوسون صاعدين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا ، وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر ، وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة ، ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رايه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب . .

لقد رأى إدريس أفندى في وضوح أن « وضع واحترام النظم التي تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول » ، ورأى محمد على يستوحى المثل القائل : « إنما الشعب كالسمسم ، ينبغي أن تسحقه لكي تخرج منه الزيت » . ويعود إلى رثاء المصريين في صفحة أخرى :-

« أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعية الدائمة في أيدي رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهي ، والتصرف في قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم . وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا رديء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير

من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرياج أيضا لإرغامه على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلاً من أن يدفعوا له أجره يقولون له أن قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .. وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد يؤس المصريين لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلاً في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما كانت جبال من الغلال تحت إمرة الباشا دون أن يكون للمصريين التعسين إلا أن ولو بشراء شيء منها .

وينتهي « إدريس أفندي » إلى أنه لا شك أن « محمد على » رجل فذ ، ولكن هل كان غرضه حقاً هو سعادة مصر ومجدها ، من الخطأ أن يقال أن مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمتع فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتالية ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالاً في ربع قرن ، وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة من أن تحظى به .

لم يعرف محمد على في حياته أي تربية أولية ، فورطه في الخطأ اتخذاه من نفسه مثلاً ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له أنه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين أنه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع - وكان ذلك أقصى ما يبلغه - أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها . ولكنه لا يمكن أن يصنع أطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة ، والاستعدادات الملائمة التي ينقلها إلى نفس المرء تعليم تهيدى ينمى ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التي لا بد منها لطالب الدراسات العليا .

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوروبية تضج باسمه ،
وأنه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان فى اسطنبول .
وان الناظر إلى جميع الأعمال التى زخرت بها حياته ليرى واليا
متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغي أن
يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل
مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على أساليب
الدفاع من ناحية أخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن فى نفوس
الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون
مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها
وهيبتها إلا من شخصه .

فهل سعدت مصر بعد زوال حكم محمد على ؟ لقد تعقب إدريس
أفندى خلفاءه على عرش مصر . عرف إبراهيم باشا معرفة مباشرة ،
ووصف لنا همجيته وشراسته ، وأورد من الوقائع الثابتة ، المؤرخة
ما يدحض آيات المديح التى ردها المؤرخون الرسميون . ثم تحدث
إدريس عن سياسة عباس الغربية ، وعن مبادئ سعيد وإسماعيل .
ان مذكرات « إدريس أفندى » إذن وثيقة خطيرة ، لابد من
الرجوع إليها لتصحيح تاريخنا الحديث .. ولقد جمعت - فضلا عن
سجل سرى لخفايا أسرة « ظالم باشا » - صفات فنية وإنسانية
هيئات ان تجتمع لدى كاتب واحد . ففيها طلاوة القصة ، وبراعة
التصوير ، وغزارة الثقافة ، ومشاركة وجدانية عميقة لحياة
أجدادنا ، وهى حياة كانت تنسينا واقعها كتب أطنبت فى تمجيد
الولاة وأغفلت وجود الشعب . لقد حان لجيلنا المتحرر أن يسمع
لهذا المؤرخ النائر .

■ الجزء الأول ■

صور من المجتمع المصري في القسرون التاسع عشر



فناء بيت مصري في القرن التاسع عشر
نقلا عن كتاب (الفن العربي) المجلد الأول

القاهرة

لا أعرف مدينة تتقابل فيها الأضواء تقابلا أروع منه
في القاهرة . فإن السائر في الشوارع الضيقة بتلك
المدينة التي تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى ،
يروعه في كل لحظة مشهد الترف المسرف إلى جانب
الفقر المدقع . وتتصادم في القاهرة البهجة والآلام
دائما ، فكثيرا ما رايت موكب عروس تتقدمه جوقة
الموسيقيين يلتقي بموكب جنازى دون أن يقطع الموسيقيون عزفهم
ودون أن يقطع المشعوذون لعبهم ، بل رايت في كل مرة تقريبا أعضاء
الموكبين يتبادلون الحديث في لغة الإخوة والأخوات .
ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الأجناس التي تضطرب
في تلك الشوارع المزدهمة . فهناك يرى المرء جميع أركان الأرض ممثلة ،
الابيض ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين . والزنجى المنخفض
الجبهة الغليظ الشفتين ، والعربي والتركي والشركسي والهندي
والحبشي . كل أولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ، ويتكلمون لغات
برج بابل .



مناظر من الأسواق

فى كثير من الأحيان ، عندما أخرج لقضاء امورى .
ادخل قهوة وهناك أتسلى بتأمل المشاهد المتنوعة
التي تجرى . أمام أنظارى . أحب أن تحيطنى
التموجات الخفيفة التي ينشرها « تمباك » نارجيلتى
أو غليونى الطويل ذى الميسم العنبرى . والدخان
هنا لا يثير سيلان اللعاب المنفر الذى يجعله كريها
فى أوربا . بل يجد المرء لهذا الدخان - وقد أصبح رقيقا جدا لمسيره فى
انبوبة طويلة ، أو لأنه قد تنقى فى الماء - طعما يبحث عنه دون جدوى
فى كل مكان آخر . وإنه ليبقيه وقتا طويلا فى فمه ثم يطرده قليلا قليلا
وهو يتذوق عذوبة تبغ « صور » أو « اللانقية » أو هذه الأنواع المكيفة
الأخرى التي تتفنن فيها الشعوب الشرقية .

اجلس وفى يدى غليونى ، وفى الأخرى فنجان القهوة ، والاحظ اللوحة
الحية ، الصاخبة ، المتنوعة دائماً ، يقدمها لى الجمهور الذى يتجمع
ويضغط بعضه بعضاً فى هذه الشوارع الضيقة التي تحيطها الدكاكين من
كل جانب . ولا تظن أن التجارة والاهتمام بقضاء الأعمال هما اللذان
يجمعان فى شارع من شوارع القاهرة هذا الجمهور الكبير ، بل إن ذلك
يرجع قبل كل شيء إلى عدم الاتصال بين الأحياء الرئيسية حيث يتألف
نصف مجموع الشوارع من ممرات مسدودة .

وكثيراً ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال المحملة
تضطر المارة إلى أن يقفوا لكي يفسحوا لها مكاناً . وهى - بمشيئتها
الكسلى واقدامها العريضة ورقابها التي تنحني تارة نحو الأرض ، وترتفع
تارة أخرى ، بينما تتأرجح عليها من جانب إلى جانب رعوسها التي تنظر
فى توان إلى ما يحيط بها - مشهد بالغ الطرافة .

ها هو ذا الكاتب القبطى ، المتواضع ، تحت عمامة سوداء كثيرة
الثنيات ، والدواة مغمدة فى طيات حزامه كالخنجر . يمر هادئاً على ظهر
حماره قاصداً ديوانه .

والألبانى يختال فى مشيته ، مرسلا نظرات مأكرة شرسة ، وهو يدور
محتالاً فى هذه الأسواق المديدة . إن إزاره الأبيض ، واردانه الطويلة وقد
شمرها إلى كتفيه ، وسترته التي يكسوها تطريز منطقيء اللون ، وخنجره

المستطيل ، وغدارته المسرقة في الزخرف ، ومعطفه ذا القلنسوة الموشحة بجميع الألوان - كل هذا يؤلف أطراف الأزياء .

وتُقبل أيضاً لتنوع المشهد نسوة محجبات الوجوه ، مختفيات في أردية فضفاضة ، يحملن على اكتافهن أطفالاً تكسوهم التماثم ، أو على رعوسهن إناء جميلاً . أما نسوة الطبقة الغنية ، فتراهن محجبات من الرأس إلى القدم بأردية طويلة من الحرير الأسود ، وقد ركين حميراً أسرجت بسجاوحد نفيسة يرعاها السواس من كل جانب ، ويتقدمها الخصيان ، ذاهبات إلى الحمام أو إلى أداء زيارة .

والعربي - الفخور باستقلاله ، متدثراً بمعطفه الأبيض الفضفاض ، وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ، وامتنطى صهوة فرسه - يأتي ليقدم ثمرة خدماته مقابل لوازم الحياة الأولية .

والدرويش المعروف بمجونه ، وقد كست رأسه طاقية من اللباد الرمادي ، ونزل شعره حلقات على قفاه ، يقبل عليك ليضايك ببركاته . والعملوك المتباهي بعبوديته ، الأبيض البشرة ، وإلى أحد جنبيه سيف مقوس وإلى جنبه الآخر حمالة الرصاص ، يطوف في خمول بمعمرات السوق .

وإذا تقابل عربيان كانا لم يلتقيا منذ امد بعيد ، اخذ كل منهما يد صاحبه ست مرات أو ثمانى ، وقبل كل منهما يده ثم وضعها على قلبه مردداً : كيف حالك ؟ . .

وهناك الأولياء ، نوع من المجانين مباح لهم كل شيء ويبدى نحوهم السذج احتراماً دينياً . إنهم أشخاص يتكفون التقوى ، رجال قديسون نصف عراة ، يتركون مكشوقاً ما يدفعنا في العادة شهوة مفهومة إلى أن نستره ، تجدهم جالسين في الأركان أو يتفلون في الشمس . وكثيراً ما رايت نسوة تقيات متدينات يقتربن من هؤلاء الأولياء البرص ويقبلن أيديهم المنفرة .

ويمر بك الحلاق فتعرفه بتلك العصاية الطويلة من الجلد التي تقبلى من حزامه وعليها يقلب سلاحه ، وبهذا الطست النحاسي المبيض بالقصدير يتأبطه تحت ذراعه ، وبهذا الخُرج وتلك المرأة المحلاة بقطع من الصدف .

ويمر بك مكفوفون يقودهم غلمان صغار ، وحمير محملة بالشمام أو البطيخ ، وبرص ، وكلاب ضالة ، وباعة متجولون ، ثم متسولون مصابون بأورام ضخمة أو بداء الفيل البشع ، وصناع يحملون أثقالا ، أو يدقون القهوة في هاون بقطعة غليظة من الخشب مزودة بكتلة كروية لتكون اشد وقعا ، وتختلط صيحات السواس التي لا تنقطع ، أوع رجلك ! ضهرك ! عندك ! « ونداء الباعة ، وعواء الكلاب الضارية وقد وطئت أقدام الجياد والحمير والبغال المحملة بالقرب ، وولولة النساء الحزينات وإنشاد المؤذنين يدعون المؤمنين للصلاة .

وفي غمار هذه المعمة ، كثيرا ما تشهد مرور موكب عظيم قد احتشد فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن ، تصاحبهم أصوات ناشزة من الطبول والمزامير والأبواق الصفحية التي تبعث أقصى ما تستطيع أن تتخيله من صوت ثاقب ، تطلقها جميعا لتحوز إعجابك جوقة من الموسيقيين على ظهور الحمير أو الجياد دون أن تبالى بتوافق الانغام ، يتبعها هودج مزين ببهرج من « القرتر » يحوى بعض آثار الشخصية التي يحتفلون بعيدها ، ثم عدد من الميآخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع الأشكال والألوان ، ثم موكب جرار من الاتقياء والمكفوفين الذين يتبعون . فإذا أضفت إلى هذا الهرج زركشة الأزياء .. تكونت لديك فكرة عن تلك المسارات .

ولكن كل هذا الصخب وهذا الازدحام لن يعطيك إلا صورة ضعيفة جدا من اللوحة التي تقدمها إليك أسواق القاهرة ، حيث يختلط القبطي والعربي والسوري والتركي وزنج سنار ودارفور والمغربي والحبشي والفارسي والهندي واليوناني والأوروبي ، ويضطربون ، ويتدافعون بالمناكب للأغراض نفسها .

على أن المنظر في داخل القهوة حيث تنتشر الأقداح وأوراق اللاذقية بخارها أو دخانها بلا انقطاع . منظر بلغ الطرافة أيضا . هناك من أبهظتهم البطالة أو أسباب العدم فأتوا بمظهرهم الجليل يلتمسون في هذا المكان الصحو من سبات وجودهم ، وفلاحون مساكين يقتنسون شقاءهم باحتساء القهوة العربية في تلذذ . لقد أمسك كل منهم « الجوزة » في يده ، وقبع هؤلاء أو رقدوا على الأريكة ، منهمكين في لعب المنجلة أو الطلولة أو الشطرنج ، واجتمع أولئك حول متسول ورع يلهمهم برواية القصص مآجنة ، إذ قلما يضحكون لشيء آخر .

ويقص الراوى فى جلالة تلك الحكايات العجيبة ، سهرات ألف ليلة
وليلة ، التى يقاطعها جمهور المستمعين بين لحظة وأخرى بصيحات
التعجب : « الله ! عجائب ! والله شيطان ! » ، على حين قد أخذ آخرون فى
الغناء ، وقعد غيرهم على السجاجيد يسبحون بمسابيحهم .



رسم إدريس أفندى صورة « العوالم »
وبحث عن تاريخهن بحثاً دقيقاً

عدالة المحتسب

المحتسب - وهو - الأغا - المكلف بالإشراف على الأسواق - يطوف في المدينة على صهوة جواده . يتقدمه - القواسون - حاملين ميزانا ضخما . ويكتنفه ويتبعه منفذو احكامه وخدم عديدون مسلحين « بالكرابيش » او بالعصى الكبيرة . فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التي يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره او تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشترؤا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذي دفعوه ، والوزن الذي اعطى لهم . ومن أي بائع كان ذلك . ثم يامر بان توزن امامه المواد ، فإذا اتضح غش في الوزن او غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وامر بضربه بالعصا في الحال .

يقبض خدمه على المطفف ويطرحونه ارضا بحيث ينكفيء وجهه ناحية الارض ويشدون ساقيه في « الفلقة » ، وهي نوع من النير الخشبي . ثم يوقع على بطن قدميه عدة منقذين مائتي او ثلاثمائة ضربة بالسياط بعدها الاغا في هدوء على حبات مسبحته الوردية .

ويسال المحكوم عليه العفو . متوسلا بالنبي . ثم بالاغا . ثم باولاده وهم اعز ما لديه . وفي نهاية الامر ، لا يستطيع التاجر التعس . وقد تمرقت قدماه ، ان يعود إلى مكانه إلا محمولا او متوكا على اذرع بعض اصدقائه او بعض المتفرجين .

واحيانا ، إذا تكرر الغش من المطفف او إذا اتفق مع آخرين لرفع ثمن المواد الغذائية إلى درجة تثير شكوى الجمهور ، يامر المحتسب بتسمير اذنه لكي يكون عبرة رادعة .

وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها . وتوقيح العقاب في أكثر الاحيان يوحيه التحيز ، فإن لم يستغل الاغا سلطته المستبدة في اتران الاموال او اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يشحنون ذلك في اغلب الاحيان . وهو امر سهل حيال هؤلاء التجار الذين لم تحدد لهم رقابة ميزانا ولا مكيالا او حيال باعة فقراء يكلفهم شراء اثقال الوزن الخحاسية ثمنا باهظا لا يستطيعون تسديده فيستعيضون عنها بقطع من الحجر ذات وزن مناسب .

الامن والعقوبات

ما زالت مصر لا تعرف النظم الاوروبية المهذبة .
ويندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب مع ذلك .
ولا يجد الاجنبى فى اى مكان آخر حرية اكثر
مما يجد فى مصر . فالرحالة يقبلون ويقيمون
وينتقلون من اقليم الى اقليم دون ان تهتم اية سلطة
بحضورهم . او تنحرى وظائفهم . ولاى سبب يقومون
برحلاتهم . ولا يلزمهم احد باستيفاء الاوراق . شئ مجهول هنا .
على ان عدم المراقبة هذا لا يفسد الامن الخاص واستتباب الحياة
العامة . فالطرق بوجه عام مأمونة على الرغم من قلة طارقيها . ولا يبلغ
عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه فى الدول
الاوروبية . وهذا مع حفظ النسبة . ولكنه امر قد يرجع إلى ان تلك الجرائم
لم تجد بعد وسائل النشر التى وجدتتها بين اهل اوربا .

وفى تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا . وهى التى تجتمع فيها كل
انواع السلع الثمينة السهلة الحمل . إلا باقفل خشبية رديئة . وعندما
يتغيب التاجر عن دكانه اثناء النهار . يسدل على بابه شبكة بسيطة .
واما مخازن الجمرى حيث يتجمع عدد كبير من السلع فقد عهد بحراستها
إلى بضعة حراس . على حين تنبسط مستودعات الغلال فى الهواء
الطلق .

وقلما تعاقب السلطة بالسجن . ولكنها تستخدم الضرب بكل سهولة
وهو تعذيب فضيلع همجى كثيرا ما يدفعونه إلى حد القتل . فهم يخضعون
نعل المذنب ويرقدونه على بطنه . رافعين فى الهواء قدميه اللتين
يوثقونهما ويشدونهما بعضا محلاة بأحزمة تسمى « الفلقة » وعلى هذا
الجزء يضربون « بالكرباج » إلى ان يقول القاضى كفى . وكثيرا
ما يوقعون هذا العقاب على الدبر . ولقد رايت وزير الحربية السابق
« محمود بك » بامر بضرب بستانى قد سرقه ضربا عفى قدميه ودبره
وبطنه ورأسه حتى مات التوبى .

وحسب الرواية . قد حدد النبى ان يكون الضرب بغصن النخلة
او بعضا مستوية من الجلد . وهكذا يفعلون فى الجيش وفى إدارات
القاهرة . ولكن الحكام فى الاقاليم مازالوا يعمدون إلى الضرب « بالنبوت »
وهى عصا غليظة تخرج المحكوم عليه فى أكثر الاحيان .

وقد خطر لمحمد على أن العقاب يكون مفيدا بإنشاء الأشغال الشاقة .
وجميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم من التعساء الذين الحقوا
بإبدانهم عاهات للفرار من التجنيد . ويلاحظ بينهم أيضا بعض القلاميد
الذين أرسلوا إلى أوربا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة لأنهم لم يستفيدوا
من النفقات التي صرفها الياسا - تاشر المدنية - على تربيتهم .

فن التجارة

أذكر ما روى لي أحد التجار من أن مشتريا أتاه فساومه على سلعة ، ثم
قال له بعد أن اتفقا على الثمن إنه لا يستطيع شراءها منه في الحال .
فاجابه التاجر :

« تعال غدا ، فأني قد استفتحت اليوم . ولكن إذا لم تستطع الانتظار
فأذهب إلى جاري الذي لم يبع شيئا . إن لديه السلعة التي تريدها .
وقل له إنك اتفقت معي على السعر . فالتاجر إن لم يستفتح قبل الظهر
لن يرزق في بقية نهاره .

مناداة البائعة فى القاهرة

لمعظم باعة القاهرة المتجولين ، ولا سيما بائعى
الفاكهة وبائعات الباقات مناديات غريبة جدا ، فيها
صور شعرية ، وقد تحمل معنى مزدوجا . وفى أغلب
الأحيان يتعذر عليك أن تعرف ماذا يبيعون وراء تلك
الهتافات أو تلك الإعلانات .

تنادى بائعة اللبن قائلا : « يا صباح اللبن !

أو صباحك لبن ! » . أى ليكن صباحك أبيض كاللبن .

وكثيرا ما يعلن عن قصب السكر فى الشوارع بندا « أبيض على
والثمن غالى » ، وهى عبارة يفهم السامع أنها عود القصب الذى يغلو ثمنه
كلما كان طويلا أبيض اللون ، وأنها تعنى من ناحية أخرى نهد أو عانة
البائعة التى تكون فى هذه المناسبة فتاة دائما .

ويعرضون قصب السكر أيضا للبيع منادين : « يا اللى يزور حماته
بالنبوت يا أبيض ! » . فالمصريون يزعمون أن الحماية تسدى لابنتها دائما
شر النصائح ضد زوجها ، وهى لهذا السبب خليفة بأن يزورها ختنها
حاملة عصا فى يده .

وتصبح بائعة البرتقال : « يا بردقان يا غسل ! » أو « كريم عليم
يا بردقال ! » داعية الله مكنية عنه بصفتين من صفاته راجية أن يسهل
البيع ويروجه .

ويصبح بائع الليمون الحلو : « غسل يا طرنج غسل ، دوا للقلب
يا طرنج غسل ! » فهم يزعمون أن هذه الثمرة طيبة للمعدة ، ويخلط البائع
هنا بين المعدة والقلب .

وتعلن بائعات الفاكهة عن سلعهن ، كما يعلن لدينا ، بإضافة اسم
المكان إلى اسم الثمرة : « قوة الرمان ! » أى أن ذلك الرمان من غرس
« قوة » وهى موضع مشهور بجودة هذه الفاكهة .

ولبائعات باقات الورد مناديات شعرية ، فهن يقلن : « الورد شوك من
عرق النبي فتح » أى أن الورد كانت شوكة ثم ازدهرت إذ سقطت عليها
قطرة من عرق النبي . وهن يقلن أيضا : « خلاقه عظيم ! » إشارة إلى
صانع تلك المعجزة .

وتباع باقات الياسمين بمناداة « روائح الياسمين عجب ! »
وتقول بائعات الحنة : « تمر حنة من روائح الحنة » .
والجائلات لبيع الأقمشة يرسلن أحيانا صيحات غريبة لتستأثر
بالانتباه ، فلإعلان عن نوع من نسيج القطن مصنوع بآلة يجرها الثور
ينادين : « شغل الثور يا بنات ! »
وقطع الحلوى الصغيرة التي تسمى : « حلاوة » وهي تتركب من
العسل المطهو مخلوطا بعقاقير أخرى ، تجول بفداء : « بمسمار
يا حلاوة » أى أن ثمن القطعة منها مسمار .
ويجول القرمس في المدينة بالإعلانات الآتية : « مدد يا أنبلي مدد ! »
أو « قرمس أنبابة يغلب اللوز ! » أو « ياما أحلى بوح البحر » .
وثمة فداء آخر أصعب فهما للأوربي مما تقدم . ألا وهو : « يا مسلى
الغلبان يالب ! » . فهكذا يعلنون عن بذور زرع من الشمام يسمى :
« عبد اللاوى » . وهم يبيعونها أيضا منادين « اللب المحمص » .
ويتجولون بثمر الجميز منادين : « جميز العنب ! » .
وينادى باعة الليمون : « الله يهونها ياليمون ! » .



الكيف

يبدو أن « لافونتين » قد أراد تصويره في قوله :
« إنما نعيم الإله ناشيء أنهم لا يحملون هما . أنه
انعدام الموت ، وعمل لا شيء » .

الكيف هو الحياة في سكون البطالة ، الحياة دون
مشاغل ولا رغبات ، الحياة التي تنطوى فيها النفس
على نفسها فلا يصبح لها من لذة إلا في الإحساس
بانها تعيش وفي تتابع التموجات والتيجان البيضاء التي يرسمها الدخان
المنبعث من تبغ اللاذقية العبق . فالشرقيين النهمين إلى كل متعة داخلية
هادئة كلمة تستعصى على الترجمة يعبرون بها عن ذلك النعيم الذي
لا يوصف ، ذلك المزاج من راحة الجسم وطمانينة النفس ، تلك السعادة
الآلية ، وهذه الكلمة هي « الكيف » .

وحين يقارن المرء حياته المضطربة اللاهثة المتكبرة ، واسلوبنا في
فهم السعادة ، بما يذهب إليه العرب من السكون الهنيء ، لابد من أن يفكر
في بطل الأسطورة القديمة اللذين راح أحدهما يجرى باحثاً عن الحظ
دون جدوى على حين انتظروه الآخر في هدوء على سريريه حيث أقبل الحظ
يسعى إليه .

« الكيف » يدل على ذلك الاستعداد الموفق للاستمتاع بكل ما يعرض من
طيب الأمور في أي موقف يوجد المرء فيه دون قلق لما يعرض فيه من
سيئ الأمور . « الكيف » يعرف الاستمتاع بالراحة إذا أتاحت ،
والاستغناء عنها إذا لم تتح . « الكيف » كلمة تقرب من المثل القائل
« القناعة تفوق الغنى » كلمة يحسن إدخالها في لغتنا .



الحصريم

إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه أن يعلم علمها إلا بالإقامة في البلد الذي يزوره أمدا طويلا ، كالعوائد والأخلاق ، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات ، نظرا لأنهن منطويات دائما داخل « حريم » لا يرين إلا أزواجهن وأقرب أقربائهن . محال أن نعلم شيئا عن وجودهن إلا من الأوربيات أو السوريات اللواتي يختلطن بهن . وإنك لتسبب المسلم سببا إذا سألته عما يخص حريمه ، فهو لا يذكر أبدا اسم زوجته في مجلس عام . وهيهات أن يتحدث في مجلس خاص عن شئونه البيتية

* * *

أما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك في كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا . وليس حسنهن في انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذي تراه في الأوروبيات ، إنه حسن حلو ساحر ، مزاج من إفريقية وأوروبا : الوجه لطيف دون أن يكون رائع الجمال ، صغير الأنف ، كبير الفم في وسامة ، غليظ الوجنتين قليلا . وفي عينيها الطويلتين الواسعتين لحظ فائر فائن غلاب . لا تبحث هنا عن بشرة زنبقية واللوان من اللوان الورد وصدر من المرمر الأبيض : بل قدر هذه البشرة السمراء التي ذهبتا الشمس .

وأعجب بصورة هذا الصدر الذي ما أبدع مثال أجمل منه . وانظر إلى هذا الخصر الدقيق كأنه خصر النحلة ، فهو الذي رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وخلق جميع الفنانين الأوروبيين .

وإذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة نفسها من الجمال ، فقدّر هذه الأجزاء التي تعوض عن عيوب كثيرة ، ولكن يادر إلى الاستمتاع . فالجمال هنا يعبر سريعا ، إنه زهرة لا تدوم إلا نهاراً ، وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل : ذلك أن النساء لا يقمن بأية رياضة ولا يصطنعن أية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتصن السمنة بكل الطرق ، فتشوهن منذ الصبا .

وتحاول المصريات - والتركيات بوجه خاص - أن يصلن إلى تحقيق تشبيهات شعرائهن القوميين : فهن يسعين إلى جعل أوجههن مستديرة كالبدن ، وإلى جعل أردافهن عريضة بارزة لينة . ولا تبحث كذلك لدى المصريات عن هذه الملاحظة التي تكسب نساءنا ما لهن من شخصية ، فليس لثغورهن سوى ابتسامة واحدة ، وليس لعيونهن سوى نظرة واحدة ، وليس في نفوسهن إلا فكرة واحدة ، هي اللذة . كأنهن لم يخلقن إلا للحب .

* * *

وفي الشرق ، حيث لا يرى الرجال النساء ، هيهات أن يقرر الحب الزواج . فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة أو لتوافق في الطباع وفي الأفكار ، بل إن المنفعة هي التي تقود وتقرر . وإذا أراد تركي أن يتزوج فهو يقترن عادة بجارية سرحها أحد الكبراء ، والكبراء يهيئون دائماً مكاناً لمن يقدم لهم ذلك المنفذ . ويهب محمد علي في أغلب الأحيان نساءه اللواتي يضيق بهن لمماليكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلاً من دلائل الشرف أو سبيلاً إلى الثراء والجاه . أما أهل البلاد فيتزوجون غالباً فيما بينهم .

* * *

وترى قريبات الفتى - في الحمام أو في زيارة - معظم الفتيات ، فيصفنهن له بالتفضيل حتى إذا ناسبته هذه أو تلك . ذهبت اقرب قريباته إلى طلب يدها . واقامت مراسم الزواج في بيت الزوج . وتخرج العروس من بيت أبيها في موكب حافل لتدخل بيت الزوجية ، حيث العبودية تختظرها .

يفتتح الموكب قرع الطبول وعزف الموسيقيين وكل ذلك الهرج الذي يسود الاحتفالات العربية ، ويأتي بعد ذلك الراقصات والمشعوذون . ثم المدعوون إلى العرس ثم النساء المحجبات كالعادة يطلقن صيحات الفرح الطويلة (الزغاريد) . ثم تقبل العروس تحت سرادق من « القماش » الأحمر ، يكسوها من الرأس إلى القدم حجاب كثيف زاهي اللون ، وقد زينت رأسها بالحلوى . وتسندها في سيرها امرأتان تقودانها . ثم يقبل موكب غفير من الأقرباء والأصدقاء والأطفال وكل من يحب الاستملاحة وكل من يجتذبه الحفل . ويقف جميع هذا الركب بين وقت

وأخر ، لتؤدي الرافصات رقصهن ، ويؤدي المشعرون حركاتهم . حتى يصل موكب العروس إلى بيت العريس .

وفي اليوم التالي يعرض على المدعوين مندبل ملطخ بالدم أو قميص العروس . ويعبر القوم أكبر الأهمية للعلائم التي تثبت أن العروس عذراء . والزواج الحق في أن يسرح زوجته في الحال إذا لم تقدم له ذلك الدليل على عفافها . على أن هذه العادة الفظة والغريبة ليست دليلاً قاطعاً ، وما أكثر المقابلات العجائز اللواتي يبعن لفتيات سر خداع عريس ساذج !

* * *

ليس للمرأة في نظر الشرقي قيمة أكبر من أنها تؤدي واجب الزوجية . إنه لا يعرف أبداً مناجاة الحب الحلوة ولا النعيم بالثقة . منذ أن يدخل حريمه تمثّل زوجته أمامه وقد كتفت يدها على صدرها في تواضع ووقفت عينيها على عينيّه تقرب ادنى حركاته . ولا يكاد يشير إشارة حتى تهرع فتحضر له « الشيشة » أو تقدم له القهوة ، على حين لا يفضل السيد - وقد استلقى في كسل على « الديوان » - بأن يخاطبها إلا لماماً .

والنساء شديداً التراخي ، يعجزن عن القيام بعمل طويل ، ويقضين نهارهن متمددات على أرائكهن يتعطرن أو يصفرن شعرهن ، أو يسترسن إلى أجلامهن ، أو يغتبن غيرهن ، أو يتجسسن على سلوك جيرانهن . ومهما يكن من شيء ، فقد توجد هنا السعادة المتوقفة على النساء ، كما توجد في كل مكان آخر . فإذا كانت المرأة شابة ، جميلة ، محبة ، فيها لطف ورقة ، فهي تستطيع أن تمنح تلك السعادة حبشية كانت أو مصرية أو فرنسية . ولعل الحياة التي اعتادتها نساء الشرق أضمن لسعادة الزوج .

فالعالم والمجتمع في نظر الشرقية يتلخص في زوجها وابنائها وبعض الصديقات . وهي لذلك لا تجد في نفسها تلك العواطف والحاجات المتكيفة التي أنتجها المجتمع وأنتجتها الحركة الصاخبة ، حيث يبذر نساؤنا في سنوات قليلة نفوسهن وأجسامهن .

إن الشرقيات أكثر هدوءاً ، لا يعشن إلا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن أنفسهن على الحب مادم في الشباب ، وبعد ذلك يقفن على أولادهن وعلى شئون بيوتهن .

لا تقولوا إذن : إن هذه الحضارة متأخرة ، همجية ، فلئن حرمتهم حرية كبيرة فإنها تعوضهن عنها سعادة بيتية ، وتلك أئمن السعادات جميعاً ، لأنها الوحيدة التي ليست حُلماً .



من الغيرة إلى الإيثار : قصتان

الغيرة التي بين نساء الحريم أقل بكثير مما نظن بوجه عام : فهناك غير قليل من النساء يعشن معاً كالأخوات ، يهتمن بنفس الشئون ، في ظل نفس الحنان ، دون أن يُتَلَفَّهُنَّ الحسد . إنهن يضمنن لزواجهن أو سيدهن احتراماً كبيراً ، وإذا كانت المعاملة التي يلقينها منه رقيقة نزيهة .. ابدين له في أغلب الأحيان إخلاصاً هيات أن تجده في غير الشرق .

زوج فرنسي

عرفت في مصر ضابطاً فرنسياً كان قد تزوج ، على طريقة أهل البلاد ، فتاة قبطية ورزق منها ولداً . وكان يحبها حبا جما . ولكنه ، بعد بضع سنوات من هذا الاقتران ، أحب فرنسية أثارت في نفسه جميع ذكريات وطنه ، فطلب يدها ونالها . وإن علمت الزوجة القبطية استيئت ، وانتهى بها الأمر إلى أن رضيت في إذعان أن ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذي وهبته نفسها . وبفضل ثروة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر ، فذهبت إلى بيت غريمته متنكرة . وعاشرتها بعض الوقت وإن وجدتتها ممتازة في عوائدها بقدر ما هي ممتازة في تعلقها العميق بزوجهما المشترك . قررت أن تسكن معها ، ونفذت قرارها في أثناء تغيب الزوج غيبة طويلة . فلما عاد ، قدمت إليه الأم والولد ، وقالت له : « لقد عشنا منذ رحيلك كالاختين ، وأرجو ألا تفرقنا ! »

فكان أن عاشتا معاً ، حتى فرق بينهما الموت . وكثيراً ما يرى المرء في الحريم زوجتين ترضعان معا ثمرتي حب رجل واحد فتتبادلان كل يوم طفليهما ، إن لم يكن ذلك لتوثيق عاطفتهم المشتركة ، فلتوثيق رابطة الأخوة بينهما على الأقل .



زوجات الشيخ حسن الجبرتي

واستطيع أن اذكر الف مثل من نساء يخترن بأنفسهن الغريمت اللواتي سوف يشاطرنهن فراش الزوج ، ولكني سأقتصر على ذكر مثل واحد .. لأن الذي أورده رجل من أكبر رجال القاهرة علماً ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، الذي كتب تاريخاً لمصر الحديثة سماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وفيه يتحدث بإطناب عن أسرته وعن أبيه . والذي يعنينا هو أبوه ، الشيخ حسن ، وقد كان رجلاً مثقفاً مبعجلاً .

أحبته زوجته الأولى آنزه الحب ، وكان من بين أعمال البر الزوجي التي كانت تنتظر عنها الثواب في الآخرة أنها اشترت عدة مرات من مالها الخاص جوارى فتيات حسنات حسناوات هيأتن على نفقتها ، وقدمتهن سرايا لزوجها . ولما كان الشيخ حسن موفور الثراء فقد اتاح له ذلك أن يتزوج نساء أخريات ، وأن يشتري جوارى أخريات ، لم تظهر لهن زوجته الأولى أية غيرة . وهذا مالا تفعله كل امرأة .

وحين ذهب الشيخ حسن إلى الحج ، تعرف في مكة بالشيخ عمر الحلبي الذي الحج عليه في أن يشتري له من القاهرة جارية بيضاء عذراء لا تكاد تتجاوز سن المراهقة ، وتتحلى بصفات كذا وكذا . فلما عاد الشيخ حسن مضى إلى سوق الرقيق ، وبعد بحث كثير وفق إلى شراء جارية تجتمع فيها كل الأوصاف المطلوبة . وعهد بها إلى زوجته إلى أن يستطيع تسليمها للشخص الذي كان مقدراً أن يقتلها إلى وجهتها . وكان ذلك اليوم ، فأنبا زوجته لكي تعد جميع ما يلزم ، غير أنها في لحظة فراقها للجارية ، أحست بعظم معزتها لها ، فقالت له .

— لقد ألفت بيني وبين ، زليخا ، عاطفة كبيرة ولا أستطيع أن أفارقها أنا لم أرزق أولاداً فاتبنها ابنة لي .

وكانت الجارية الفتاة حاضرة ، فأخذت تبكي ، وجارت أنها لا تريد مفارقة سيدتها أبداً . فقال الشيخ

— ماذا أنا فاعل إذن ؟

فأجابته زوجته :

— أذهب فاشتر جارية أخرى ، وأما هذه فسادفح ثمنها من مالي . وتم ذلك واعتقت الزوجة العاقر جارياتها « زليخا » ، ثم أعدت لها « شوارها » ، وأنشأت لها مسكناً منفصلاً ، وزفتها عروساً لزوجها الشيخ

حسن ، وعلى الرغم من انها أصبحت شريكها فى الزواج واما لعدة اولاد ، فإنها لم تكن تستطيع فراقها ساعة واحدة . وبعد عدة سنوات مرضت زليخا مرضاً شديداً ، فأذا السيدة العجوز تمرض بدورها ، ولا تعمر بعد وفاة تلك التى اتخذتها ابنة لها إلا ريثما تشيعها وتنظم بنفسها جنازتها .



فى الحمام

ان الحمامات من الداخل جديرة بالوصف . فبعد ان تجتاز ممشى طويلا ، تنتهى إلى بهو فسح ينفذ إليه النور والهواء من فتحة عريضة بالسقف . وتحتل وسط هذا البهو فى العادة نافورة تنبثق فى حوضها . وتمتد حول الجدران من كل جانب مصاطب فرشست بالمسجاجيد والتمارق . هناك يودع المرء ملابسه . ولا تكاد تدخل حتى يتقدم لحوك خادم ليعينك على خلع ملابسك ، ثم يدثر رأسك بمناشف دافئة ، ويضع قدميك فى « قباقيب » خشبي ، ويقتادك من يدك فى ممر متعرج ينفذ منه المرء إلى المَجْم .

انها عدة غرف متتالية ، محلاة بفسيفسات من المرمر أو الصينى الملون يحفظها الماء دائما جد نظيفة ، وجميعها تسبق قاعة كبيرة مستديرة كسا الاسمنت جدرانها ، واتخذ سقفها هيئة قبة خفيفة لطيفة تزيينها قطع من الزجاج الملون تنتشر نورا حلوا جدا . وقد صنعوا فى الوسط نافورة ومدوا حول الجدران أرائك يستلقى عليها المستحمون حين يدلّكهم الدالكون .

وتتصل بهذه القاعة المستديرة عدة غرف صغيرة يحتوى بعضها على مقاعد رخامية فى وجه صنابير تصب الماء البارد والساخن الذى يستحم به المرء ، ويحتوى بعضها الآخر على حوض يملؤه ما يغلى فيمتزج بخاره المتجدد دائما بما يحرقون من عطور . وفى العادة يستلقى المرء فى هذه القاعة وقد أسند رأسه إلى وسادة صغيرة أو اتكا يدخن النرجيلة متخذا جميع الأوضاع المناسبة ، بينما تغمره سحابة من البخار تنفذ من مسامه جميعا فتصيب عرقا غزيرا .

فإذا استرحت قليلا ونديت جميع أجزاء جسمك ندى لذيذا تسلمك فتى
يكاد أن يكون عاريا ، ليمرسك فى رفق ، ويقلبك ، ثم يركع فيثنى جميع
مفاصلك دون إجهاد ودون إيلاء ، ويمد جميع أطرافك ويجعلها تؤدى
حركات كبيرة .

وبعد تلك المقدمات الرياضية ، قد يضع يده فى قفاز باذخ الزينة ، وقد
لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك بأكمله نازعا منه كل وسخ
لاصق به ، ثم يزيل بقطعة من الحجر الاسفنجى ما يعترى قدميك من
نتوء .

وبعد التدليك ، ينشر على جسمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما .
وحين تنتهى هذه العملية يكسوك بمنشفات جديدة ويعيدك إلى القاعة
الأولى ، حيث تستلقى فى استرخاء على « ديوان » ، تحسو القهوة وتدخن
الغليون ، على حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبدأون فى
تدليكك مرة أخرى .

ولا تكاد النساء تخرج إلا للذهاب إلى الحمام . فهناك يقضين فى كل
اسبوع ساعات حلوة لذيذة ، يعرضن ترفهن ، وعطورهن ، ويسلمن
شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية أو فضية . وفى الحمام يأكلن
وينمن وينفقن نهارهن بأكمله تقريبا ، وكثيرا ما يَدْخُلْنَ بعض المطربين
المكفوفين ليشنفوا أسماعهن . وتعلن ستارة تسدل على باب الحمام أنه
مغلق دون الرجال ، وإذا ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم لخدمات .



رذيلة تركية

الملاوطة رذيلة شائعة جدا فى مصر لا سيما بين
الأتراك الذين لا يتخرجون من مزاويلتها جهرا .
قبل حرب المورة ، حينما كان إبراهيم باشا حاكما
للمصعيد ، كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه .
فارسل إليه الباشا الكبير ، بدلا من نسائه ، ممالك
أحداثا ، قائلا إن رجل الحرب لا ينبغى أن يكون له من
حريم غير ذلك . وكذلك فعل محمود بك حيال ابن أخيه . وهذه الرذيلة التى
هى القذع عار ترمى به الإنسانية لم يكن لها أى رادع فى مصر حتى
سنة ١٨٣٠ إذ فرض محمد على عقاب الأشغال الشاقة على الجنود الذين .

يرتكبون فيما بينهم هذه الفاحشة . وكان الشعور بالعار خليقا بأن ينال أولئك الأثمين مثلا أشد من هذا الجزاء الذى لا رجعة فيه ولا تشهير . وماذا انتج نفى البغايا ؟ لقد نشر خطيئة سدوم انتشارا ذريعا ، لا سيما فى الاسكندرية حيث كان المنع اصرم . فالغاشمون لا يرون بأسا من تفشى مواخير الغلمان ، ولكنهم يغرقون فى البحر أى امرأة يأخذون عليها أدنى علاقة محرمة . وقد انتهكوا فى الاسكندرية أطفالا أوربيين دون ان تجرؤ عائلاتهم على رفع الشكوى خشية الفضيحة . وطنطنت الصحف لمقتل فتى راح ... مع انه كان ملتحي الذقن ... ضحية رفضه الإذعان لهذه الفاحشة .

* * *

لقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تلافي تمثيل كل ما من شأنه ان يجرح الذوق الرقيق المرهف . ففى تصورهم للمواقع ، حفظوا للمقتلى والجرحى جميع أعضائهم . فلا ترى شخصا بقرت بطنه حوافر الخيل . وفى المنظر الذى يمثل التحنيط ، حرصوا على ألا يضعوا جثة بين يدي أنوبيس ، بل رسموا المومياء تحوطها أربطتها ، هائلة الوجه مبتسمة للموت . وفى مناظر الولادة ، تجد دائما ان عملية الوضع قد تمت ، ولا ترى أدنى شيء من التفاصيل التى تعافها العين ويمجها الذوق . أما آثار الهنود فهى عكس ذلك تماما .

* * *

دراويش

نوع من العاجنين نصف عراة ، يحتقرون ... تحت ستار الدين ... كل شيء ما عدا شهوات البدن . وهم من الشعب ، يتكلمون لغته ويقنعونه أكثر مما يقنعه العلماء .

فى صلاة الجمعة ، اقبل درويش فوضع امام كل من الحاضرين ورقة صغيرة يحلها إطار من الزخارف العربية وتحوى آية من القرآن . ووضع كل امرئ صدقته فوق البطاقة ، وعاد الدرويش فجمعها دون أن يوجه للمتصدقين عليه أدنى شكر .

وقلنسوة الدرويش منسوجة من تسع وتسعين غرزة لا غير ، إشارة إلى صفات الله التسع والتسعين .

* * *

حفلة ختان

شهدت هذا المساء حفلا من العادة إقامة عند ختان الاطفال . رايت هؤلاء الاطفال على صهوات جياذ بانحة الزينة يطفاف بهم في ارجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد . وعلى رأس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالاشرطة والازهار ، يتبعه عدة مشعوذين ، وعوالم قد أسرفن في طلاء وجوههن وانطلقن في هيئة مثيرة يغنين ويؤدين رقصا ماجنا ، ومصارعون دهنوا اجسامهم بالزيت ومضوا يعرضون حركات رياضية . ثم تأتي بعد ذلك جوقة من الموسيقيين راكبي الحمير ، يعزفون انغاما حادة ثاقبة لا توافق بينها ، وانه لضجيج حقا .

وترسل النسوة اللواتي يختتمن الموكب صيحة واحدة تختلط بين حين وآخر بالموسيقى ، وهي تلك الصيحة نفسها التي يستخدمنها في الجنائز مع تنويع خاص في تنغيمها باصواتهن . ويسند كل طفل على حصانه سائسان يقفان به ما وقفت هذه « الزفة » ، وهي تقف في كل ميدان لتؤدي الرقص والألعاب .

وهكذا يعودون بالاطفال إلى بيت ابيهم حيث يقوم حلاق بالعملية ، ولا يفوت الأب أن يدعو إلى وليمة حافلة لهذه المناسبة جميع الأقرباء والأصدقاء .

ولم يأمر القران بالختان ، ولكن المسلمين ، بل والأقباط أيضا عقب العمام ، يختتنون بوجه عام جريا على تقليد ورثوه عن آباؤهم ، ولأن ذلك من إجراءات النظافة . ويقال أن فيثاغورس قد اضطر إلى أن يمثل للختان لكي يتحدث مع الكهنة المصريين ويباح له دخول هياكلهم . وأما اليهود فينقدونه بوصفه فرضا دينيا .

* * *

كسرم .. ومسرح .. وخلصود

لن تجد فى أى مكان ارق من كرم الضيافة الذى تلقاه
فى الشرق . ولقد راع حسن الاستقبال هذا كل رحالة
جاء تلك البلاد . وليس فيما يقدمه لك الشرقى أى
مباهاة . فهو يعتبر ذلك واجبا يفرضه عليه الدين .
وانك لتصبح واحدا من افراد العائلة منذ تسكن سقف
رجل مسلم . وهو لا يهتم ابدا بشخصيتك من تكون
ومن أين اقبلت وإلى أين تذهب ؟ ولا يوجه إلى البائس سؤالاً يحرجه
أو يخجله .

على الرغم من أن الطبقة العاملة ترتدى الاسمال . فهى ليست من
الانحطاط وفساد الأخلاق بالقدر الذى تجده فى مثيلاتها التى تؤلف حثالة
المجتمع الأوربى . فان ديننا صارما يؤثر فى الشعب تأثيرا كبيرا ويمنعه
من الانحراف المنفر الذى تصادفه لدينا .

ولقد افسد طباع هذا الشعب استبداد هو ادنى أنواع الاستبداد .
ومعاملة هى اقسى ما تكون المعاملة . وادى به السخط إلى ثورة نزعاته
الشريرة . ولكنه فيما عدا ذلك شعب موهوب بصفة المرح التى لم يستطع
البؤس أن يغلبها ولم تستطع المظالم أن تقضى عليها . وهو هذا المرح
الذى يطرده هموم التفكير فى المستقبل . أهو الاستخفاف أم الخمول ؟
إن جميع ما نبتنا به الكتاب القدماء عن طبع المصريين الهادىء نجده
فى أهل مصر الحديثة . كان المناخ الثابت الذى لا يتغير فى هذا البلد
يضى علىهم شيئا من طبيعته .

تكاد المهن جميعا أن تكون متوارثة . ومن النادر الا يحترف الابناء
مهنة ابيهم . و ليوم تؤلف كل مهنة . فى كل مدينة . نقابة لها رئيس
خاص . وذلك تقليد ترجع أصوله بلا شك إلى قدماء المصريين الذين كانوا
ينقسمون إلى طبقات يخلف فيها الأبناء اباءهم .

* * *

المصرى رجل ملازم للدار . قد حفظ نزعته الضعيفة إلى الاستطلاع .
انه يكره الرحلات التى تبعده عن ضفاف النيل . النهر الذى لا يستطيع ان
يبتعد عنه . كما يقولون - من شرب من مائه العذب .

* * *

العسرس الحسزين

روى لى الجنرال « دوماس » قصة عن كرم الضيافة العربى أعجب بها الجميع ، فلما رويتها لأحد المصريين ذكر لى قصة أروع منها حدثت فى القاهرة منذ حوالي عشرين سنة .

فقد دعا غواد مشهور يسمى « محمد الجاهل » جمعا عديدا لشهود عرس ولده . وما كاد يدخل الفتى على عروسه حتى أخدمته نشوة السعادة بين أحضانها على حين فجأة . فلما أنبىء الوالد القعس بالفاجعة لم يظهر شيئا من ألمه . وكنتم ولولة نسائه بأن هدهن بالطلاق ، ثم عاد فجلس مع ضيوفه ، وتناول عوده ، واطربهم حتى الصباح . وبات يستمد من عوده الحاننا شجية عجيبة ، ويتغنى بكلمات موافقة لما يجد من شعور ، ودموعه تسح من عينيه فتستدر مدايح جميع الحاضرين .

ولما حان انصرافهم قال لهم :

— ما أردت تعكير صفوكم ، فامكثوا معى قليلا لتعزيتى . إنى فقدت
ولدى فى هذه الليلة ، فامكثوا لتشيعوه معى . ولتكن إرادة الله .
وإنشاء تلك الليلة ردد مرارا هذه الأبيات التى ارتجلها تحت تأثير ألمه ،
والتي مازالت حتى اليوم ماثلة فى ذاكرة من سمعوه يغنى :

سبيل عيونه من غير نوم	والعين سودة بتسراشى
نائم على فسرشه سكران	ويقول حبيبى ما جاشى
روح يا عذولى إبعد عنى	انسا وحبيبى متهنى
قسوم قسوم	قسوم قسوم



طبّق الأصل

من دراسة الرسوم المنقوشة على المقابر المصرية ، يوقن المرء بتأثير المناخ ، على اخلاق السكان وعاداتهم ، وذلك للتشابه الذى بين عادات اهل مصر القدماء واهلها المحدثين ، فإن تجدد ظواهر بعينها تجدد دوريا ، واستقرار « المناخ » هذا الاستقرار الثابت قد انتجا عادات واحدة وميلا إلى الرسوخ يتميز به المصريون . وذلك ما جعلهم يحفظون حتى أيامنا هذه ، بالرغم من الثورات الدينية والسياسية المتعاقبة ، كثيراً من العادات القديمة . كان جميع المصريين ، على ما ذكر هيرودوت ، يحلقون رؤوسهم ، ولكن جميع المومياء - باستثناء بعض الكهنة - محتفظون بشعرها ، ورسوم المصريين تظهرهم لنا بشعرهم ولحاهم دائما . وتصنيف الشعر خصلا متفرقة ، كما نراه بكثرة فى الرسوم ، مازال من عادات العبايدة .

وكانت حمالة تشد قمصان القدماء ، كما ترى بوجه عام لدى الفلاحين . وكانت النساء فى القديم ، كما هن اليوم ، يتخضبن بالحناء ويحملن شيفائر طويلة من الشعر تتدلى على اكتافهن . وعادة التوازن فى وضع متوسط بين الجلوس والركوع ، مازالت من عادات المصريين . وقصب الغاب الذى يستخدمونه فى الكتابة شىء عام لدى جميع الشرقيين

وقد واصل أبناء الشعب حمل الاوانى على راحة اليد مع تقريب المرفق من الجسم وجعل اليد بجوار الكتف ، وهذا تمثله كثير من الرسوم القديمة . كما هى تمثل العادة المنتشرة حالياً فى نقل الاثقال ، فإنهم يعلقونها على راقعة شديدة يحملها من طرفيها على مناكبيهما اثنان من الرجال .

ويقول هيرودوت : « إذا مات رجل ذو مكانة ، لطخت جميع نساء بيته رعوسهن ووجوههن بالطين ، وكشفن صدورهن يلطمنها ، وطفن فى المدينة » . وهذه العبارة تذكر بالذى مازال يجرى فى أيامنا .

أما الأثاث والأدوات المنزلية فهي شديدة الشبه بما عرفه منها القدماء .
يرى المرء في الرسوم قدوراً كبيرة كانوا يضعونها على أقدام من خشب .
ويبدو أن أواني أخرى متنوعة الأشكال كانت لها خاصية التبريد .



الخلود في الحياة اليومية

أمام لوحة من الفن المصري القديم جلست فلاحه جلوس الكاتب المصري . ووقفت الأخرى
كحاملات القرابين . بريشة إدريس إقندي .

جولة في شرقي الدلتا

هناك منطقة بأكملها من شرقي الدلتا قد خيم عليها الفقر . عبثا تبحث عن مدينة حديثة واحدة في هذه الربوع التي مازالت تعرض آثار كثير من المداثر التي كانت عامرة في القديم . وفي كل يوم تنقرض هناك الزراعة مع من ينقرض من الناس .

استوينا في مركب شراعى ، وحظينا بهبوب نسيم جنوبي خفيف ، وفر على البحارة عناء التجديف . وبدأنا الرحلة في جنل ، بين صخب الأغاني المرحية وتصفيق الأيدي التي توقع الألحان مع قرع الدريكة المرتفع .

شسيرا :

وسرعان ما مررنا بشسيرا ، أى بقصر النزهة الذى بناه محمد على . فى حديقة ذلك القصر « كشك » يذكر المرء بخيالات الشرق . ويجسم أمامه منظرًا ساحرًا من مناظر « ألف ليلة وليلة » .

ثم مررنا بعدة قرى لا تقدم للباحث عن الآثار ولا لمحِب الاستطلاع أى موضوع شائق ، وإنما تناقض بمظهرها الخرب وفقرها المدقع بذخ الباشا وترف العظماء . إن هذه اللوحة المحزنة التى تجرح بصر المسافر أينما رسا لتضطره فى أكثر الأحيان إلى التفكير فى أسباب هذا البؤس العميق الذى يحصد الشعب المصرى . فلو كانت حسنات الحضارة لا تُشتري إلا بالآلام والحرمان ، لما دفع شعب أفدح من ذلك الثمن نظير هذا الخليط الشائن من الهمجية والمدنية الذى يصدم أعين الرحالة فى مصر .

بنها العسل :

وإذا تابع المرء مجرى الفرع الشرقى للنيل - وكان هذا الفرع يحمل قديما أسماء تختلف باختلاف الأماكن التى يخترقها - فإن أول قرية ذات بياض يلاحظها هى « بنها العسل » ، التى اشتهرت فى الماضى بحلاوة عسلها وبجمال حدائقها . فمن هناك ، فيما يقول الكتاب العرب ، اخذ المقوقس ما أرسل من عسل - مع هدايا أخرى - للنبي محمد ، قبل أن يغزو عمرو بن العاص مصر بسنوات قليلة .

تل أتريب :

وراء « بنها العسل » وإلى الشمال منها بقليل ، يرى الناظر عدة تلال من الأطلال تبين مكان مدينة قديمة . تلك آثار « أتريبيس » التي مازالت تحفظ اسمها قرية واقعة إلى شمالها الشرقي تسمى « أتريب » .
روى لى عامل أوربي التقيت به على تلك التلال أنه أثناء تنقيبه فيها بحثا عن أحجار قبل انقضاء عشر سنوات تقريبا ، وجد أسدا من الجرانيت الوردى ، وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام . وقد استخدمت جميع هذه الآثار في بناء مصنع غزل القطن ببنها العسل . غير أن الأسد ، بفضل صلابته مادته ، قد نجا وأصبح يزين مدخل ذلك المصنع . حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر ، الذي ورد بين ألقابه على هذا التمثال لقب « منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية » .

ميت غمر وزفتى :

وأما ميت غمر وزفتى اللتان نصل إليهما بعد ذلك ، فبلدتان صغيرتان لا أهمية لهما ، تواجه إحداهما الأخرى على ضفتى النيل المتقابلتين . بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير النيلة . ويبدو أن هاتين البلديتين حديثتا الإنشاء ، فلا يلقى الجائل فيهما أى جزء قديم . لقد لاحظ الرحالة « ساقارى » فى ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع خطر له أنه استخدم كنسية للمسيحيين قبل غزو العرب .

غير أن السائر فى أرجاء مصر يستطيع اليوم أن يرى عدة منائر مماثلة ، وليس طراز المسجد فى جملة مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية الأخيرة ، بل تلك عمارة عربية خالصة ولكنها ذات طابع بالغ الطرافة يسترعى التفات الفنان .

وتأخذ ضفاف النيل - وهى كثيفة ممتدة حتى تلك المنطقة - فى التزين بأضرحة جميلة ، أنيقة الشكل ، يتناقض بياضها الناصع سواد اللبى والطين اللذين بنيت بهما البيوت وأبراج الحمام العالية فى جميع القرى .

بهبيت :

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من سمند ، مازال الناظر يستطيع أن يرى بالقرب من قرية بهبيت ، على بعد نصف فرسخ داخل الأرض ، سورا كبيرا .

من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لإيزيس يمكن للمرء أن يتخيل أبهته . وإن كان من المحال اليوم أن يتعرف على أسسه . لقد كان مشيدا بأكمله من كتل جرانيتية ضخمة الأحجام .

وبينما أنا منهمك فى رسم نقوش ناووس لإيزيس ، شاهدت أحد العمال . تتبعه امرأتان . وقد أقبل ليريهما الحجر الشهير بحجر « العرايس » ، والذي يعتقد أهل القرى المجاورة أن له القدرة على إزالة عقم النساء . وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولدا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم ، فقالت فى ورع كل تمثال على تدييه وعلى بطنه . لعل تقبيل هذه المواضع أشد اثرا . وقفزت سبع مرات فوق الكتلة . ثم مضت راضية . إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين أهل مصر . رغم احترامهم للقرآن واتباعهم ما نص عليه من الفروض اليومية . فما أطول عمر الأساطير !



دمياط

ترسم دمياط هلالا متسعا على ضفة النيل اليمنى .
عند آخر مرفق يشكله وهو يجرى نحو البحر . ويمتد
أمام دمياط سهل فسيح . تحده شمالا غلبة من
النخيل . بينما تنمو وراء المدينة بساطين عديدة
مزدهرة بأغنى انواع النبات تخترقها قرع ترويتها .
أو تتخللها غدران من الماء يكسو سطحها النيلوفر .

وذلك من سل المدينة عن بحيرة المنزلة .

إن ماضي المساجد الانيقة التي ترتفع فوق النخيل . ومختلف اعلام
الدول التي عينت قناصل لها . وساريات السفن التجارية . تخلع على
دمياط من بعيد لونا من العظمة والثراء . ولكنك إذا توغلت في الداخل .
تهيبت عند كل خطوة تخطوها - كما هو الحال في جميع المدن المصرية
الآن - أن يسقط عليك طرف من جدار . أو أن تتداعى واجهة بناء معتمدة
على قوائم نخرها الدود . أو أن تهوى مئذنة قد مالت على الطريق العام .
وإذا عبرت أسواقها الضيقة المعتمدة . حيث تعرض في مواسمها ثمرات
الأرض المتنوعة . قصب السكر والموز والتين والبطيخ والشمام
والقلقاس والأرز والقمح والشعير . بين كمثرى دمشق وتفاحها . وتبغ
صور واللاذقية . والمشمش اللبثاني المجفف . والسمك المملح . وصيد
البحيرة . وبلح الصالحية . وتلك الاواني الخزفية السوداء الهزيلة التي
يصنعها أهل المنطقة . فسوف ترى في هذه الاسواق على وجه التقريب
ما تراه في القاهرة . وسوف تلاحظ ان الناس يكثرون هنا من استخدام
أرغفة الخبز بدلا من النقود في ابتياع المواد الغذائية الزهيدة .

لقد كانت دمياط مدينة عامرة قبل بضع سنين . ولكنها تتدهور كل يوم .
ولا يزيد عدد سكانها الآن على ١٢٠٠٠ نسمة بما في ذلك ٢٠٠٠ مسيحي
معظمهم من المذهب اليوناني . وما زال الجائل في دمياط يلمح آثار بذخها
الغابر في بضعة بيوت من الأجر اعتنى أصحابها ببناؤها . تنيرها نوافذ
عريضة مسورة . وابواب تزخرفها رسوم عربية جميلة .

وليس في دمياط أثر يستحق الذكر . فإن أقدم مساجدها وهو مسجد
ابولاتا [أبو المعاطي] . لا يقدم للباحث سوى كتابات كوفية بالية .

وخطه معمارية طريفة من حيث توزيعها الغريب لنيف ومائة عمود مختلفة المواد . فبعضها من المرمر . وبعضها من الجرانيت وبعضها من « البروفير » الأحمر تتنافر أشكالها بقدر ما تتنافر ألوانها ، وتحمل أقواسا خبيثة تتكئ عليها أخشاب السقف .

لقد دأب الناس على التكسير من الأعمدة المرمرية والحفر فيها وهناك المسلمون والمسيحيون ممن ينسبون إليها قدرة إعجازية على أمور معينة . ويشربون نقيع شيء من هذا المرمر بعد سحقه . ويبلغ من تخريب تلك الأعمدة أن بعضها لا يكاد يقف إلا على سن رهيبة يُفزع منظرها عين زائر لا يؤمن بإعجازها وهو يطوف بهذا المسجد المهجور .



الأتقياء والماجنون

دخلت يوما مسجد [ابي لاتا] بدمياط لكي أرسم نيجان الأعمدة ، وهي آثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية الأخيرة . فوجدت المسجد مليئا بجمهور صاخب . لقد وافق ذلك اليوم عيد شيخ مبجل هناك بسبب معجزاته العديدة ومدفون بهذا المسجد الذي أصبح يحمل اسمه . وكان ضريحه مزيئا بالأسمال وخصل الشعر ويهرج النذور - كما تزين العكاكيز التي تمكن من المشي أصحابها الكساحون - أو تماثيل السيقان والأذرع كنيسة كاثوليكية .

وأخذ الجمهور يتزاحم في صحن المسجد حيث كان الإمام قد شكل حلقة كبيرة احتلت مركزها سارية عالية مزدانة بالأعلام ، قبع تحتها أتقياء يفككون حبات مسابيحهم . وآلف غيرهم من ذوى الجمية - بينهم الشيوخ المستنون والرجال والفتيان من جميع الطبقات ، وهم يسرون وقد اعتمد بعضهم على بعض - محيطاً متحركاً يدور ببطء حول الحلقة الداخلية . ومضت كل حلقة تابعة من تلك السلسلة الكبيرة تهز جسمها هزاً وتهتف بصوت أجوف أجش : الله ! الله ! الله !

كان كل منهم يتكئ بيسراه على من تقدمه ، ويمد يمناه للمتفرجين الذين وقفوا صامتين ، فكونوا المحيط الخارجي للدائرة . وكان كل متفرج

حريصا على أن يسند الدائرين ، وأن يقبل في ورع أيدي المتشجنين .
وكان الإمام وبضعة شيوخ قائمين بجوار السارية يصفقون بالأيدي
ويصيحون ليضبطوا التوقيع الذي راح قرع الطبول يؤديه أيضا بطريقة
أشد صخبا .

وسرت غواطف الحماس والاستنفار ، وانتقلت من شخص إلى شخص
عن طريق البصر والسمع واللمس ، فانتشرت كما تنتشر العدوى ، وأدت
في وقت قصير إلى دوار عام .

وجينما انتهى بهم التعب إلى التهاوى ، امسك المتهوكون منهم عن
الاهتزاز ، وسقطوا وسط الجمهور التقى الذي كان يبادر إلى وضعهم في
الحلقة ، وهناك يقبعون جامدين ، لاهثين ، شاردى الأعين ، في حال من
الفناء والسكون والنشوة هي في نظرهم أفضل من جميع خيرات الأرض ،
لأنها تصلهم بالجوهر الأبدى ، الذى يأتى نوره إذ ذاك - كما يقولون -
فيملأ نفوسهم .

لبثت وقتا طويلا أتأمل هذا المشهد . كان فى الأزياء المتنوعة الغربية
التي ارتداها هؤلاء المشحونون بالارواح ، كان فى خليط ملابسهم ، وفى
تعبير عيونهم ، وفى التشنجات التي أخذت تغير ملامح وجوههم ، كان فى
هذه اللوحة باجمعتها طابع من التشيع والدوار المقدس آثار رعبى .
ويطلقون على هذا النوع من التمثيل الدينى اسم « الذكر » أى إحياء
ذكر الله ، والأولياء إلخ . وهى حفلات تقام فى مناسبات مختلفة ، لشخص
أو لجماعة ، بغية الحصول من الله على نعمة ما أو للاتصال بذاته .
وقديما دفع داود وحىً مشابهاً إلى الرقص أمام التابوت المقدس .
وأما محترفو التقوى ممن يستغلون الدين دائما فى خدمة أغراض
الدنيا فيقيمون الذكر لإسقاط غريم ، ولإستئزال المرض على مناس ،
أو الموت على عدو . ويوجد كتاب عربى عنوانه « جلجوتية » يعلم
الصوم والصلاة وجميع الطرق التي تستعمل فى « الذكر » ليكون قوى
المفعول .

وبعد أن خرجت من المسجد ، توجهت نحو الأضرحة التي تحيط به ،
حيث اتصل الاحتفال بالعيد فى أسلوب آخر . هناك كان ينتظرنى مشهد
جديد . كانت تلك الجبانة بأسرها تكسوها الخيام والمقاهى والمتاجر
المتنقلة . فهنا راقصات ومشعوذون يسحرون شبابا شرها ، وهناك

أراجيح ترمح فوقها الطفولة الالهية .

وأتوا من جماعة يبدون لي أنها أشد ابتهاجا وصخباً مما عداها . فقد كان جمهور غفير يتزاحم في دائرة حول قرد غليظ قد أحكم تكميمه ومضني يلعب مع غلام صغير . وبعد دورات عديدة من الكر والفر . وحركات كثيرة متنوعة . استولى ذلك الحيوان الشهواني على الغلام وانهل عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام .

هذا القصور المنقر لم ينقصه شيء . ولم يدخل عليه أي تخفيف شكلي . ولا يستطيع غير المجنى عليه أن يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعاً تاماً . وكان جميع المتفرجين يصفقون . بل واجترأت نساء على أن تشهد مثل تلك المخزى . ومن بينهن أمهات ممسكات ببنااتهن !

* * *

كنت قد رايت في المسجد شبانا ينتهلون من الدين نفسه إفراطاً حرمة الدين . فقد قُتحت الخرافات والتشيع امخاخهم الفتية بمرض عضال . ورايت في الخارج فتيات يتلذذن بمناظر الدعارة حيث يأتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التي لا يعيرها الشرقيون من الاهتمام ما يعيرون عذراوية اجسامهن .

ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين أشد التقارب أن تعطياكم فكرة عن الاخلاق والتربية هنا . إن الحكومة تترك مثل هذا الفساد قائماً وتتباهى بما ادخلت من إصلاحات في الدولة !

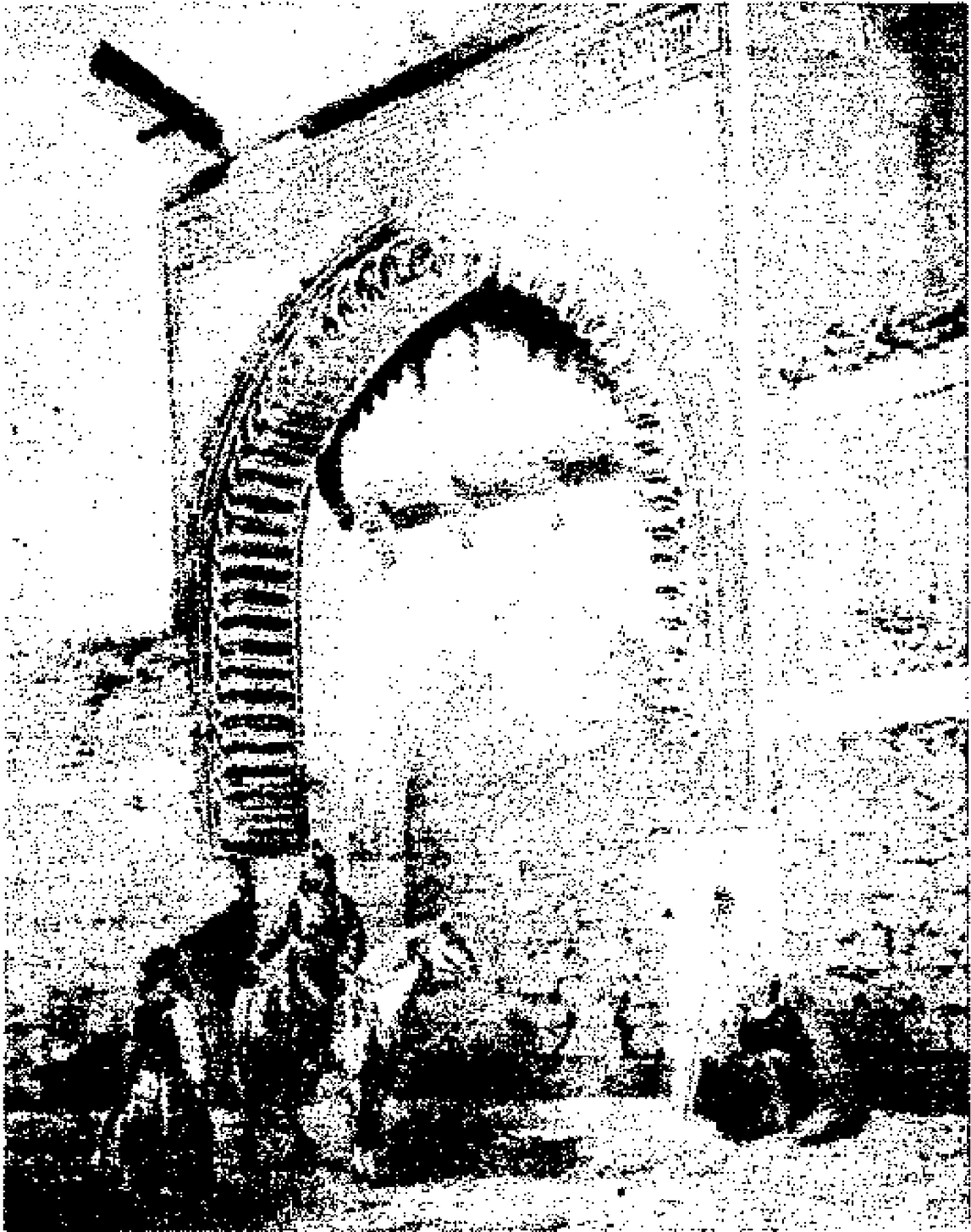
وانحدر النهار . وذُهِبَتْ آخر اشعة الشمس قمم الأضرحة وشواهداها . فخرجت على المسجد ودخلته وسط خضم من الناس لالقي نظرة أخيرة على الرقصة المقدسة .

كان الجمهور قد ازداد عدداً . فقد انضم إليه جميع العمال بعد أن فرغوا من شغل اليوم . وجدت نفس الصخب . ونفس الاختلاط . ونفس الاحتشاد . ولكن اللوحة قد أمست خلابة رائعة . فإلى تلك السارية المزينة بالرايات شدت حبال طويلة كالحبال التي تشد سفينة راسية . وتدلت من تلك الحبال عقود من المصابيح الملونة بهرجت المنظر بأضواء متنوعة السطوع . وبدلاً من تلك الحلقة الكبيرة التي كانت تدور حول السارية . رايت حلقة خاوية راح جميع من كانوا يشكون محيطها يتحركون . كل فرد على حدة . مميلاً أعلى جذعه إلى اليمين وإلى اليسار

ثم إلى الأمام ، وهو يصيح دائما : الله ! وكأن من يسقط منتشيا يفل في وسط الحلقة أو ينسحب بعيدا ليستمتع كما يروقه بتلك السعادة . وبعد استراحة دامت لحظات قصيرة ، تغير المنظر أيضا . فقد جلس أكبر القوم جلالا وتقوى في أسفل السارية ، واحاط بهم المتفرجون ، تاركين بين كتلتهم فضاء صغيرا . ولم تلبث حتى انطلقت صيحات فرح تشبه زغاريد النساء المديدة ، رد عليها الاتقياء ، وإذا بثلاث فرق من الرجال ، رؤوسهم كاسية بحجاب طويل ، واجسامهم عارية إلا من إزار أبيض ، يدخلون الحلقة دون أن ندري من أين أقبلوا ، ثم يجتمعون ويسفرون عن وجوههم ويؤلّفون سلسلة جديدة . وكان كل شخص يحمل بكفا يديه جرة صغيرة من جرار الدراويش ، ويقفز وهو مقوس الجسم مقدما ساقه اليمنى إلى اليسار قليلا ليدور على قدمه هذه ثم على قدمه الأخرى بالمثل ، وتلك حركة تشبه الخطوة الماسونية ، كانوا يؤدونها وهم يرددون الهتاف الأبدى : الله ! وبدأ أنهم يقدمون الماء لكل امرئ ، ولكنهم ظلوا يرفضون إجابة سؤال الحاضرين ، ولم يوافقوا على توزيع الماء إلا بعد قيامهم بدورات عديدة .

واتصل المشهد ، في أضواء المصابيح الملونة وضوء القمر الذي طلع إذ ذاك . وكان السكون ، وكانت الوجوه المظمنة الخاشعة في ذلك المجلس ، وكان تنوع الإزياء ، وذلك السرى الغامض الرمزي ، وكانت تلك البوابات الخربة ، وهذه المئذنة الشاهقة القائمة كصنم معبود ، كان كل ذلك يضيف على تلك اللوحة الجذيرة بريشة رامبرانت ، ، طابعا قائما وطريفا لن تجد له نظيرا في غير ذلك المكان .





قارس أمام مسجد الظاهر بيبرس في القرن التاسع عشر
عن كتاب الفن العربي لإدريس أفندي .

سوري في تاريخ دمياط الحديث

كانت دمياط تتمتع ، قبل انقضاء بضعة اعوام ، باهمية تجارية هي التي منحتها الشهرة والثروة . فحرية البناء فيها ، ومصنع غزل القطن ، ومصانع النسيج ، وكثرة السلع التي تستوردها من سوريا ، ومزارع ارزها الشاسعة بوجه خاص ، كانت تجعل منها إحدى مدن مصر الرئيسية ولكنها الآن في ركود نتيجة للاحتكار الذي تمارسه الاسكندرية . وملازمت دمياط مستودع أرز الدلتا ، يضربونه فيها ويبيضونه ، غير انهم لا يبيعونه . فعلى اهل دمياط ان يشتروا الارز من الاسكندرية .

لقد قُدر للاسكندرية فيما يبدو ان تصبح المتجر العام لمصر ، فجميع السفن ملزمة بان تقضى فيها مدة الحجر الصحي ، حيث تجد ميناءً آمناً . كما يلوح ان جميع تجارة سوريا تريد ان تتجه هذه الوجهة الجديدة . ويروى اهل البلد ان قدهور دمياط قد بدا منذ وفاة « باسيلى فخر » ، وهو مسيحي سوري كان اول تجار المدينة .

وينبغي ان اذكر لكم شيئاً عن هذا الرجل الذي يُعد بين اعلام مصر الحديثة . اخذ ابوه « حنا فخر » التزام جمرك دمياط في عهد علي بك الكبير ، وسرعان ما اثري . وفيما بعد ، ضمنت له المكاسب التي جلبها للحكومة مكانة لدى « علي بك » وضعت كل شيء تحت سلطته .

وورث باسيلى فخر تلك الوظيفة عن ابيه ، واحسن القيام بها ، فجمع منزلة ابيه ونفوذه ، بل وزاد ثروته الشخصية . وعينه عدة قناصل عميلاً لهم في دمياط ، واثناء الحملة الفرنسية ادى بعض الخدمات ، وانقذ حياة عدة فرنسيين ساعة رحيلهم ، مما عاد عليه بعد ذلك بوسام « جوقه الشرف » .

وفي عهد محمد علي ، الذي عرف كيف يقدره ، اصبح باسيلى فخر اول شخصية في المدينة . وكانت كل السفن المصرية التي ترسو في الميناء ملكاً له ، بل كانت التجارة بأسرها بين يديه . وإذا كان لا يحكم المدينة فذلك لان الإمرة لا تسند لمسيحي ، ولكن الحاكم والقاضي كانا بلا انقطاع في ديوانه العام بالناس دائماً . وقد توقف هذا الرخاء حينما نشبت ثورة اليونان ، فقد أصيبت ثروته بخسائر جسيمة ، ولم تكد تجارتها التي كانت رائجة فيما مضى ان تفي بمصروفاته إلا في عسر .

وكان « فخر » يتكلم بطلاقة العربية والتركية واليونانية والإيطالية ويندهش المرء إذ يحاول أن يعرف كيف استطاع ، مع العناية بتجارته وأعماله ، وحياته في هذا الركن من العالم بعيدا عن وسائل التثقيف ، أن يجد متسعا من الوقت ليتعلم جميع تلك اللغات ويشغل بآدابها . وكان يفهم الفرنسية فهما يتيح له أن يترجم كتبها ، وقد تعلم الرياضة في كتب موضوعة بهذه اللغة .

رايت في مكتبته التي تضم أفضل المؤلفات الفرنسية وعددا كبيرا من الكتب العربية والتركية واليونانية مخطوط ترجمة لكتاب قولني « الاطلاع » ومختارات وافية من « وصف السماء » لفرانكور مترجمة إلى العربية ، وبعض الفصول عن تاريخ مصر القديمة مما كتب المؤلفون المصريون . واطلعت كذلك على مجموعة من رسائل « باسيلي فخر » إلى عدد من اساقفة الشام والبطاركة تتناول أهم الموضوعات الدينية . إنك لقرى أي الدراسات كان يؤثرها « فخر » ، وإنك لتقدر أي ثورة في الأذهان كان خليقا بأن يحدثها نشر تلك المخطوطات .

ولكن للأسف عاد « باسيلي فخر » في السنوات الأخيرة من حياته إلى جميع أوهام الأدياء الشرقيين ، فراح يشتغل بالسحر ، وكست تعليقاته كثيرا من كتب التنجيم . واستدرجته علوم الغيب إلى دراسة الهيروغليفية ، فأنكب عليها بحماس ، لا يبحث عن تاريخ حضارة المصريين القدماء ، بل ليكشف الأسرار التي أراد الإله « هرمس » أن يستودعها الخلف عن طريق لغة جامعة .

وكانت دار « باسيلي فخر » - وهي أجمل دور دمياط وأكثرها بذخا - مفتوحة لجميع الوافدين من جميع أنحاء الأرض ، ولا سيما الأوروبيين الذين كان يحب عشرتهم . وما زال أهل دمياط يتحدثون عن كرم ضيافته ، وما أدى من خدمات عديدة . وقبل موته بلحظات قليلة - وقد توفي منذ بضعة سنوات - قال للقسوس الذين أقبلوا يحملون إليه آخر الفروض : - لا حاجة بي إلى وسطاء يتشفعون لي لدى كاثن عادل طيب يعرف أبعد ما تكنه أفكارى خيرا مما أتذكره . دعوني أغادر هذه الدنيا كما عشت فيها .



من ذكرياتي في الأقصر

بعد أن القيت نظرة سريعة على أهم معالم مصر العليا والنوبة السفلى رجعت إلى « طيبة » حيث كنت أريد أن استقر لكي أدرس الآثار وأقوم على مهل برحلات مختلفة في وادي النيل وفي الصحراويين اللتين تمنطقانه بحزام من الرمل والجبال الماحلة . وبدأ لي المقام في الأقصر أفضل منه في أية قرية أخرى من القرى الراضية بين أطلال العاصمة الفرعونية ، وقررت أن أنزل في المسكن الذي شيده البحارة الفرنسيون الذين كلفوا بأن ينقلوا إلى باريس المسئلة التي تحلى اليوم ميدان « الكونكورد » .

وكان ذلك المنزل المتواضع المبني باللبن فوق طنف قصر « أمونويليس » أشمل المنازل راحة . فقد كان المرء يشرف منه على منظر رائع ، ويحظى فيه بنسمات النهر البليغة ، وينتقل منه وإليه بمواصلات ناجزة ميسرة ، ويجد بعد هذا كله في القرية ما يكفل حاجات الحياة اللازمة .

وسرعان ما تم استقرارى بفضل قلة الآثار الذي يتطلبه بيت عربى ، فبعض البسط والتمارق والخصر كان لي أفخر ديوان هناك . وكان اثاث غرفتي يتألف من مائدة وكرسيتين أخذتهما من قاربى . وبعض الكتب صففتها على ألواح من خشب الجميز منزوعة من تابوت مومياء ، وخريطة معلقة على الحائط بين أسلحتى التى اصطحبها في رحلاتى وأدوات الصيد ، وتزيرير من الجريد تعلوه كلة . وهكذا كان لي في غرفتين ما يفي بمقتضيات الحياة العامة ولوازم الدرس والحياة الخاصة .

وكنت قد استقررت باسمى العربى الذى أطلق علىّ عندما دخلت في خدمة محمد على والذى احتفظت به أثناء الرحلة كما احتفظت بى النظام ، لما كنت أيسران لي من وسائل الحياة دون سبب بين المسلمين الذين كانوا يحيطوننى والذين كنت أعرف من لغتهم وشلاتهم ما يلائم أن أجرح شعورهم ومعتقداتهم .

وكان مجتمعى العربى المعتاد يتألف من ناظر قسم الأقصر ومن قاضى القرية وكنت أتحدث معهما في كل شيء واستقى منهما تاريخ الاقليم ونظام إدارته في عهد ما عاصراه من الحكومات التى اختلفت عليه

وكان مجتمعى الاوربى مركزا فى شخص يونانى يقيم على الضفة
الآخري بين المقابر المصرية ، حيث كان يعيش من تجارة الآثار ومن غلة
بعض الاراضى التى كان يستخدم فى زراعتها عددا من الفلاحين اسعدهم
ان يتجو تحت حمايته من اتاوات الشيوخ . وكان هذا الرجل الطيب
واسمه « تراياندا فيلو » ، قد ضحى بكل شىء فى سبيل استقلال بلاده
وبعد ان قنى ماله فى سبيل ذلك الكفاح ، حضر إلى مصر تحت ضغط
الاحداث واضطر إلى البقاء بها ، ويتحدث دائما عن رغبته فى العودة إلى
وطنه ولكنه يجد الاطمئنان فى خلوته الهادئة فلا يغادرها حتى يموت .
وكان قد حظ فى « طبية » لإدارة حفائر مستر « سولت » ثم واصل
التفقيب لحسابه الخاص اذ توفى القنصل الانجليزى واكتسب هو من طول
الخبرة معرفة بالأرض تؤهله ان يحدد لك مكان جميع آثار طبية التى بيعت
فى أوربا منذ أربعين سنة . وكان بفضل مقامه الطويل وتجاربه وما اتيج
له ان يؤدى من خدمات للرحالة ، على صلة بجميع من اشتهروا فى العلم ،
فكان حديثه ينبىء دائما بتفاصيل مفيدة . ومقابل المعلومات الخاصة
بالآثار او النوادر التى كان يرويها لى ، كنت امدد بأخبار أوربا واحديثه عن
عجائب حضارتها . وكثيرا ما كان ياتى لزيارتى حين كانت دراساتى
تجذبني إلى الضفة الآخري بين المقابر الفرعونية ، وكان يسرتنى ان اتقبل
بدورى كرم ضيافته .

ولما كانت الحاجة قد اضطرتة إلى التفتير فقد كان يعيش وحيدا
كالراهب ، يحوك ثيابه بنفسه ، ويعد طعامه بنفسه ، ويصوم كل صوم فى
المذهب اليونانى ويقرأ كتابه المقدس بانتظام ، غير متخذ بعد ذلك من
تسلية لإقراءة « هومير » او « هيرودوت » وبعض الصحف التى كان
يرسلها إليه مراسله . لقد صالحنى هذا الرجل الطيب القلب ، الخدوم
البصير بالأمور والناصح فى حكمه ، صالحنى مع أبناء جنسه الذين يتعلم
المرء بلا انقطاع ان يحتقرهم اينما رحل فى حوض البحر الأبيض
المتوسط

وإلى جانب هذه العشرة الثابتة ، كان يقبل من وقت إلى آخر الرحالة
الذين كان يجذبهم إلى هذا الربع من مصر العليا حبهم للاستطلاع
او الدرس او علاج ما اصابهم من داء او الاشتغال بالتجارة ، والذين كانوا
كالطير العابرة لا يثبتون إلا لاسمهم وبعض انباء البلاد التى اقبلوا منها .

ولكن بعضهم كان يقيم أمدا يقصر او يطول بين هذه الآثار ، يحفرهم من الدواقع ما استبقاني هناك . من هؤلاء الرواد من مات قبل أن يستطيع إدراج اسمه فى سجلات العلم ومنهم من عجز أن يطلع على العالم بثمره لعلمه ، فهو ميت رغم حياته ميتة ليست أقل إثارة للأسف .

وكن مجتمعى الشرقى ، باستثناء بعض الأشخاص ، متنوعا كمجتمعى الأوربى . فقد كان كبار الموظفين الذين يجيئون للتفتيش على الاقليم يلتمسون فى أكثر الأحيان فى المنزل الفرنسى مسكنا ارق هواء واضمن للراحة . من المقام فى مركب على النيل او تحت خيمة .

بين هؤلاء الضيوف العابرين كان « خليل أفندى » حاكم المديرية ، وقد اتصلت به اتصالا وثيقا ، وعادت على صداقته بتقدير سكان المنطقة واعتبارهم ، وكثيرا ما كنت ادافع عن قضاياهم امام محكمته . وكان خليل أفندى قويم النفس عادلا ، متدينا دون تعصب وليا نزيها ، يتحلى بصفات عالية لم يكن احد يفتن إليها فى المنصب المتواضع الذى كان يشغله . وفى تلك الفترة اقبل « ماهوبك » احد اصدقاء الياشا ، احد الذين زاملوه فى حمل السلاح منذ الحملة الفرنسية ، فانفق فى الاقصر ثلاثة اشهر لتنشيط إرسال محصول القمح إلى بلاد العرب . و اراد أن ينزل فى البيت الفرنسى ، ولكنه إذ علم أننى احتل غرفتين فيه واننى غير مستعد للنزول عنهما لاي شخص كان .. ارسل فرجاني أن اذهب لأقبله . دعوة يوجهها لك « ماهوبك » كان معناها أمر صدرك وعليك أن تصدع به . لذلك لم يستطع المملوك الذى جاء يرجونى باسم سيده أن امضى لزيارته تصديق ما رأى من رفضى . لقد أجبت بوضوح أن « البك » إذا كان يريد لقائى فهو يستطيع أن يتجشم عناء المجيء عندى . وتكررت الدعوة ، وتكرر الرفض .

وحمل إلى الدعوة فى اليوم التالى « الأب ترياندا فيلو » الذى حدثنى عن صديق محمد على فى عبارات شديدة الإطراء . ولما علمت أن « البك » كان مريضا وأعرج يتعبه صعود درجات سلمى الشاقة ، قبلت دعوته منبئا إياهم بالأسباب التى حدثنى إلى اتخاذ قرارى الجديد . واستقبلنى « ماهوبك » بحفاوة شرقية واستبقانى للعشاء وأطال السهرة للتحدث فى التاريخ والسياسة .

وفى اليوم التالى ، بعد راحة القيلولة ، وريثما كان الخدم ينصبون خيمته . رد « البك » الزيارة ، مريدا أن يرى الاعمال التى تستبقينى هكذا

وسط الفلاحين والأحجار ، محروما من كل وسائل الراحة التي توفرها الحياة الأوروبية . وباستعراض رسومي ، فهم كيف يمكن إعطاء فكرة واضحة صحيحة عن أهل وأشياء بلد من البلاد إلى أولئك الذين لم تتح لهم سبل الرحلة . ثم حظ الحوار - كما حظ في الأمس - على حديث فرنسا وانجلترا وروسيا الذي كان شغل الأتراك الشاغل إذ ذاك كما هو اليوم وبعد سفره علمت أن خازن داره قد منح خدمي كيسا (١٢٥ فرنكا) وكان « ماهوبك » لا يزال يتبع التقاليد الشرقية العتيقة ، فتعطل بانني ضيف محمد علي وبالتالي ضيفه هو وأرسل لي صندوقين من أجود انبذة فرنسا وآخر من المربي والحلوى التركية .

وإثناء مقامه أفضى النظم في رسومي وفي أبحاثي مرارا بالحديث إلى ذكر أبهة المصريين القدماء وقوتهم . فرغب في معرفتهم ، وراق لهذا الرجل الذي طالما مر أمام آثار الوثنيين مبتسما في إشفاق واحتقار أن يتأملها بانتباه . وكوفئت سخرتي في مرافقته مرافقة الدليل ، فقد عادت على العالم بحفظ مدخل هيكل الكرنك الذي أمر الباشا باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة . وإجابة لرجائي أمر « ماهوبك » بالبحث عن مواد البناء في غير ذلك المكان وأنقذ الكرنك من تحطيم وشيك .

وكنيت أنفق جميع سهراتي تقريبا في صحبتة هذا الرجل الطيب طيلة مقامه بالأقصر . وكان في النهار بعد تصريف الشؤون يسأل قارئاً أن يقرأ له « سيرة نابليون وحمالاته » وهو كتاب كان قد ترجم أخيراً إلى اللغة التركية بأمر الباشا وكذلك كتاب الأمير « لمكيا فيلى » . فإذا حان المساء وجبت مناقشة ما جاء بهذين الكتابين ، فمن تتبع مسير الامبراطور على الأطلس إلى الإجابة عن أسئلة طويلة ، مع عدم التردد في أي جواب لكي لا تفقد في نظر أمثاله قدر ما أوتيت من علم على قتله . وكان ينبغي أن تستطيع في الحال ذكر عدد سكان الامبراطورية الروسية بكل دقة وعدد رجال جيشها ومبلغ دخلها وحدود أرضها . وكان ينبغي أن تقول - دون أن يجذو عليك الاضطراب - كم تبعد الشمس عن الأرض ، وما سرعة الصاعقة أو سرعة قذيفة المدفع . وكيف كان زى جنود الإسكندر . ولماذا لم يستخدموا البخار بدل البارود . أو لماذا لا تتصل الحركة اتصالاً دائماً ، وما السر في عدم وجود حجر الفلاسفة .. موجز القول أنه لم يكن لك بد من أن تملك معرفة موسوعية حتى ترضى جميع الأسئلة التي تتوز أثناء الحديث .

وفضلا عن رغبته في التثقيف كان « البك » سيد الرأى كبير الحيدة
والقسامح ، ذا نظرات شخصية في الامور تخلع عليها مظهرا جديدا
مما كان يعوض جليسته بعض الشيء عن ملل تلك السهرات الجارية على
وتيرة واحدة والتي كثيرا ما كان يختتمها بسؤالى عما إذا كان الله قد
وضع حدودا لذكاء الإنسان .

وأما فى أسلوب الحكم والإدارة فقد كان « ماهويك » يتبع لخطاء موله
الذى كان معجبا به إعجابا حقيقيا . لقد أطلق فى المهمة التى جاء ليقوم
بها فى الصعيد كل الشدة التى يفرط فى استخدامها عمال الباشا . وقلما
كان يلجأ إلى العقاب بالضرب ، ولكن الناس كانت تعلم أنه يعاقب بالقتل
دون مراجعة فكان الجميع يرتعدون أمامه .

ولقد أعطتنى علاقاتى تلك بـ ماهويك وكذلك علاقاتى بخليل أفندى حاكم
الأقليم منزلة عندهما كنت أستخدمها فى سعة إذا استدعى الأمر أن يحترم
العادون حقوقنا .



Chants Funéraires (Mour.)

الخيل يا خياله والعديا ويراده والله سميع ومانع ما جابتوا ولاده يا قهوه يا ام قهول
 شرابك فيني شرابي على الطياره يا هواره يا دنيا يا غضاره ودينيه فيني
 اليم الله كلها لله والله الغراق صعب عامل اسم الله على الغنصور وشبابه من رقدت
 العيان وترابه اسم الله على الغنصور ومثيله من رقدت العيان وردمه —
 يا ختموا قاعد على كرسيا مستنسايد ها يقطع قتا وبها يا ختموا قاعد على الكرسى
 مستنسايد ها لما يجي ويفتي — قالوا احاكم البلد غزلوه هروا وطافه وعكره دلوه
 قالوا احاكم البلد رحلوا هروا وطافه وعكره تزلوا —
 ليت المصلي ما يصلي اليوم همل صلاته وانكى للنوم ليت المصلي ما يصلي اذ اهل صلاته
 وانكى رقدته اذوا المصلي الاربعة والسبعة يصلي صلاة العصر والجمعة —
 دبح الديبحة راح وخلاها جاتوا سرى حيل دلاها دبح الديبحة راح وهلمها جاتوا
 سرى حيل تزلها — فابت على احد اذ نصف الليل فزاريق عايق دقها له زين
 يا موهي فاتبى عليك عايق عوده مخيش رى ربي على الرايق يا موهي فاتبى عليك
 شلبي عوده مخيش والببليله دهبى

رقاء

(صفحة من وثائق إدريس أفندي عن الأقصر)

الفلاح

الزارع المصرى طويل القامة ، قوى البنية . متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع صحيحها . تتوقد بالحياة عيشاه السوداء وان الغائرتان فى محجريهما والمرتفعتان بعض الارتفاع نحو الجبين . وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الاهداب الطويلة التى تلتف من قدحهما . وهو قوى الشفتين . جميل الأسنان . ينتهى وجهه البيض اوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج . اما فلاحو الدلتا فانصح بشرة بكثير وذوو مزاج لمفاوى .

وفى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالى والصور المنحوتة على الآثار القديمة . فكما تبدو لك تماثيل إيزيس ، تبدو لك مصريات اليوم . وهذا التشابه الذى لا جدال فيه يؤدى إلى استنتاجين طريفيين ، أولهما يتعلق بالفن ويمكن استخدامه عند الحاجة مقياسا للحكم على ثمرات العبقرية المصرية ، وثانيهما ينتمى إلى العلم ويؤيد ما ذهبنا إليه أنفا من أثر المناخ فى العادات .

أما عن الذحت فنستطيع أن نشهد بأن الفنانين فى عصر الفراعنة كانوا يستوحون الطبيعة مباشرة ، ويجيدون استيحاءها فيما نراه فى مصر من نماذج مانحتوا من تماثيل الآلهة . وأما عن العلم فنستطيع أن نقول إن تشابه نساء مصر القديمة ومصر الحديثة يعد امتزاج الدم الأصيلى مرارا متعاقبة . يؤيد الرأى الذى يرد ظهور الصفات الثانوية أى الانواع الناشئة عن كل كتلة إلى الظروف الخارجية التى تحوط جنسا من الأجناس .

على أن جمال الفلاحة أقل دقة وامتيازًا من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل من نظرتة ذكاء وعمقا ، وإن كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه . وسحر الفلاحة قبل كل شىء فى رقتها الحلوة . وهى طويلة القامة رشيقة مرنة . خفيفة المشية حثيثة الخطى . ولكنها إذ تتزوج عادة فى الثالثة عشرة من عمرها ، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تزوى نضرتها من اتعاب الأمومة ومعاناة اليأس .

من ذا الذى يصدق أن من هؤلاء الأزواج الحسنى الملامح ، الوسام
الطلعة يولد أبناء ضعاف مهزولون كسيحون ، دميمو الوجوه رهيفو
الأطراف منتفخو البطون ... مخلوقات تعسة تهلك غالبيتها الكبرى قبل أن
تتم العام الأول من حياتها .

ينبغي التماس أسباب هذا الشذوذ فيما اجتمع على الفلاح من الفقر
والقذارة والمعتقدات الفاسدة . لن يرى الناظر شيئا اقبح من هؤلاء
الأطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم فى حياتهم قط وقد حاصر الذباب
جفونهم . وإذا أضفت إلى الأسباب الرئيسية ما يعتقد الفلاح من خرافات
يطبقها ويستعين بها لشفاء أبنائه أو لوقايتهم من كل أذى . وضحت لك
علة الموت الذى يحصد تلك النسبة الهائلة من الشعب الزارع . ويواصل
من بقى منهم على الأرض حياة مريضة حتى سن المراهقة ، وفجأة ، دون
فترة انتقال تقريبا ، ترى أولئك الصغار الدميمين قد أصبحوا رجالا وساما
وفتيات حسناوات ! .

وان من انشط العوامل المؤثرة فى الأطفال نظام التغذية . ولما كان
الفلاحون جهلة وفقراء ، فليس فى وسعهم الحصول على غذاء صحى
مقو . ويكاد غذاؤهم بأكمله أن يكون نباتيا . فهو يتألف من قليل من خبز
الذرة ، غير مختمر وسيء النضج ، ومن الفول المسلوق ، والكوسة ،
واللفت والتمر والغض من الأعشاب . ويضيفون إلى ذلك من المواد
الحيوانية شيئا من الجبن غير الدسم ، وقليل من السمك وفى القادر جدا
قطعة من اللحم ، ولكنها تكون فى هذه الحالة فاسدة وأضر بالصحة من
عدمها .

والشراب الوحيد الذى يتناوله الفلاح ... ولو كان ميسور الحال هو ماء
النيل ، وفى القرى النائية عن النهر يأسن هذا الماء فى قاع الحفر التى
لا تظهر أبدا فلا يقل غضاضة عنه فتكا بالبدن .

وليس لأسرة الزارع من ترف إلا تدخين « الجوزة » واحتساء القهوة .
فالفلاح يدخن دائما تبغا محليا لم يجتز إلا تقطيعا بسيطا ، ذا عطر عذب
جدا . والتدخين - كما هو شأن كثير من عامة الشعب فى أوربا - يسكره
ويقويه فى أن واحد . وأما القهوة التى يشربها الفلاح ، فهى مركزة
وبلا سكر ، فتنتج أثارا من نفس النوع ، إنها تمنح أولئك البائسين القوة
التي لا يستمدونها من أغذيتهم .

ومنذ يظن الزارع العربي أنه ضمن لأسرته ما يقيم الأولاد ، يهوى من جديد إلى الخمول الأكمل ويعمل أقل ما يستطيع أن يعمل . وهكذا نراه تارة نشيطا لا تقعد له همة ، يخوض الوحل أو يظل في الماء ليل نهار ، في سبيل تلك الكسرة اللازمة من الخبز ، حتى إذا حصد المحصول تراه في سكون شامل لا يتحرك أيما بتمامها ، قابعا تحت نخلته يدخن « جوزته » الأبدية . هناك الماشية في الطين والبيت في حاجة إلى ترميم ، والرجل وزوجته وعياله بلا ثياب يرتدونها ، بل والخبز غير كاف لهم فهم صفر الوجوه هزילו الأجسام ، ولكن الفلاح مع هذا كله لا يعمل إلا بالتهديد أو إذا ضربه عمال السلطة العليا .

ورغم الركود الذي ينفق فيه الفلاح حياته عن عمد ، فإنه في الريف أشد حياة منه خمولا ، واقرب إلى المرح منه إلى الجد . يخاطبك محركا يديه في قوة بإشارات معبرة ، ويحدثك متلفظا بلغته الخشنة الشديدة المخارج . فاللغة العربية في فمه جزلة ، عنيفة الأصوات ، وعرة المقاطع ، على حين أنها حلوة موسيقية رقيقة على شفתי صاحبه .

والفلاحة في الواقع شديدة الصبر عن عاطفة ، خاضعة ، حنون . وهي تعاون زوجها في عمله الشاق . وإذا حدث أن سجنحت السلطة الزوج ، أخذت رضيها وجاءت عند ناقدة السجن تخاطبه وتلقى أوامره ، ثم تمضي فتنفذها في أشد ولاء . وما أكثر ما تجد التعسة من فرص تتجلى فيها دلائل إخلاصها . فإن الفلاح المصري ، وقد أبهظته الضرائب ، موضع ضغط موظفي الباشا بلا هوادة ، من أعلاه إلى أدناهم : طالما ملك الفلاح قروشاً طمع فيها هذا أو ذاك من طبقة المتسلطين عليه ، واجبروه على دفعها ، غير أن الفلاح يقاوم في إباء ، فيكون « الكرياج » أو السجن جزاءه .

ولا يستطيع أي إجراء أن يخلصه من العقاب البدني ، فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التي توقع عليه . وأما السجن فالمرأة تستطيع أن توجز مدته أو تهون من قسوته ، وفي سبيل ذلك تستخدم جميع ما أوتيت من دهاء في التصرف وبلاغة في القول . ولكسب رضا الشيخ ، تبيع حليها إذا كانت لم تزل تحتفظ بشيء منها ، وتنزل له عن بقرتها أو جاموستها أو حمارها .

والفلاح وزوجته يعيشان في عذاب متصل : فليس من حد يقف ادعاء الجبابة ولا جشع رجال الإدارة واحتلاسهم مال الأهالي . انهم قد ينتزعون من أسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم . ومهما حسب الفلاح من حساب ، فلن يستطيع تدبير ما يضمن له المستقبل .

إن سعر القطن والنفيلة والقمح والأرز المزروعة للحكومة يحدده الباشا كما يريد ، وإذا كان الاحتفاظ بسعر العام الماضي كفيلا برزقهم فمن المؤكد تقريبا أن سعر العام الحالي سينتزع منهم كل كسب سابق .

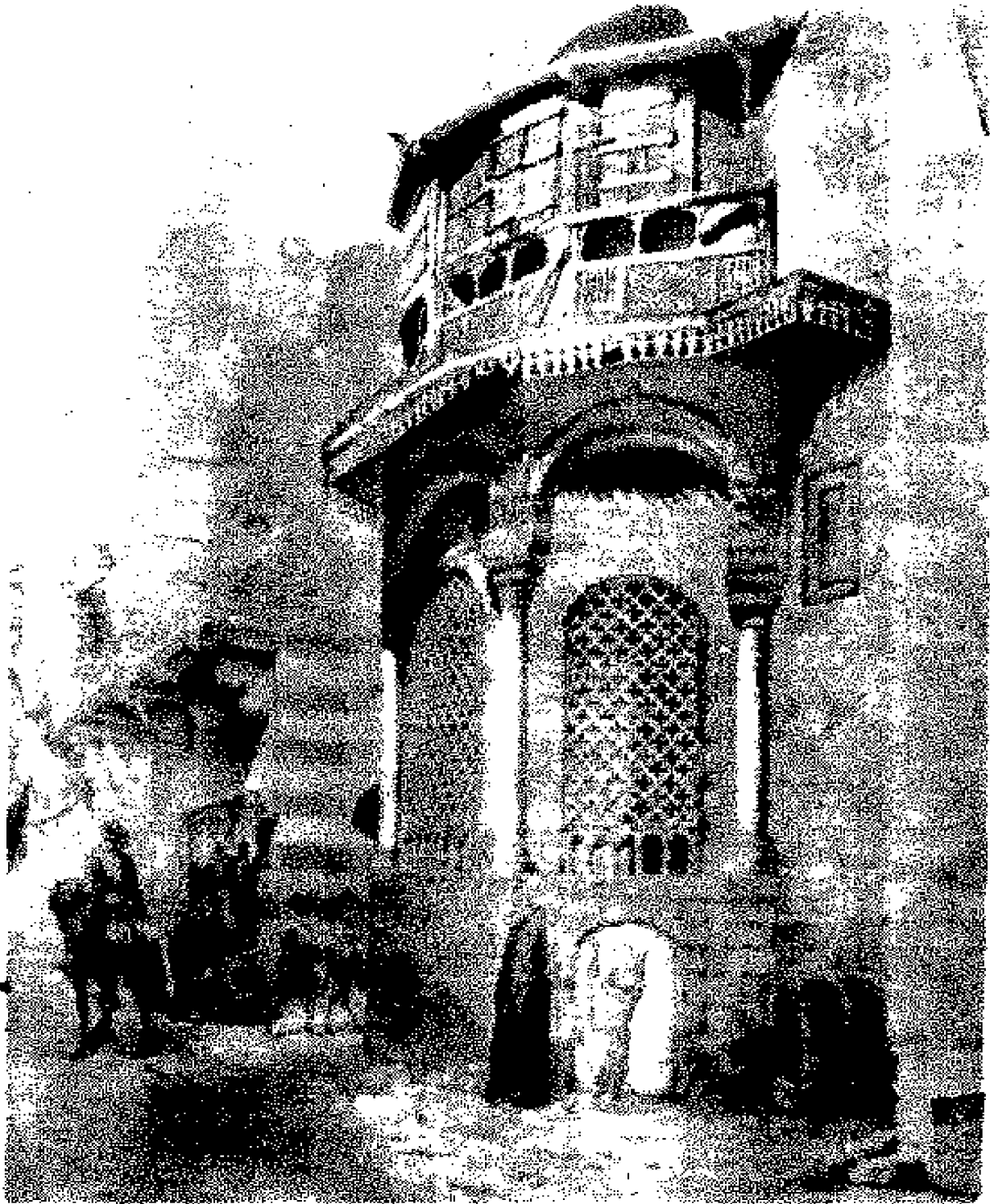
وليس للفلاح إلا ملاذ واحد إزاء ما ينهال عليه من الأذى ، ألا وهو الإذعان للقضاء والقدر . وتلك عاطفة دينية قد تغلغلت في خلق الشرقيين الحاليين حتى ميزتهم بالتساهل والتهاون . إنه نوع من الاحتجاج العليل ينوم ما أوتيت الهممة الإنسانية من توثب طبيعي ، ويضع محلها نوعا من الشعور السلبي الراكد وتلك فضيلة مشنومة تستتبع الأدواء التي لم تفلح في أن تعالجها إلا علجا فاسدا .





فلاح و قلاحة :

(بريشة : إدريس أفندي)



سبيل في شارع أمير الجيوش
بريشة : إدريس إهندي

■ الجزء الثاني ■

من محمد علي إلى إسماعيل



● محمد علي باشا ●

محمد علي

صـورته

محمد علي رجل متوسط القامة ، بارز الجبهة ، صغير الفم باسم الشفتين ، غليظ الأنف . وقد تؤلف هذه الملامح في مجموعها خلقة عادية ، ولكن خلقتها تمتاز بسرعة التعبير ، وبمزاج متسق من الدهاء والقلطف . ويحيط وجهه إطار من لحية بيضاء جميلة تغطي صدره أيضا ، وهي موضع عناية قصوى . وله يدان كاملتا الحسن ، وذلك لون من الجمال يقدره الشرقيون كثيرا . انه قوى البنية ، انيق الهيئة ، يمشى في حزم وخيلاء ، وفي مشيته شيء من الدقة والنظام العسكري . وكثيرا ما يعقد يديه وراء ظهره ، فهو يحب أن يمشى على هذه الصورة في جناحه كما كان يفعل بونايرت .

وقلما يرتدى الباشا ملابس بانخة . كان في الماضي يلبس دائما زى المماليك القدماء ، ولكنه منذ بضع سنوات استبدل بالعمامة العريضة - التي كانت ذات مظهر شرقي نبيل - الطربوش العسكري ، وبالجيب الفضفاضة الرائعة زى . النظام . على ان ملايسه من البساطة دائما بحيث قلنه الكثيرون واحدا من حاشية الباشا ، لا الباشا الكبير بذاته . وتنقسم عاداته بطابع الوقار وحسن الالتفات كعادات كبار الاشراف . وان كان هذا مما يتعلمه أدنى العبيد في الشرق بسرعة بالغة . وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الحشم المسلحين كما يفعل سلاطين اسيا ، وإنما يحرس بابه موظف واحد يفتحه لكل قادم . وفي ديوانه يراه القوم لا يحمل سلاحا ، بل يعبث في العادة بعلمة تبغ ثمينة او بالمسبحة التي يصطنعها اهل الشرق .

ويروق للباشا لعب البلياردو والشطرنج والفرد ، وهو لا يهتم إذا لعب باصطفاء خصمه ، بل يختاره من بين صغار ضباطه بل ومن جنوده أحيانا ، ولكن عادته جرت على ان يتخذ خصمه في مباراة البلياردو من بين القناصل والرحالة الاوربيين . وما هكذا يتخيل الناس في أوربا صورة محطد المماليك وقاهر السلطان محمود ومجدد مصر ! .

شخصيته

الوالى شديد الولع بالمجد ، ولذلك يتحدث بكبرياء وشغف عن أيامه الماضية . انه كثير التفكير فى البهاء الذى يحيط اسمه أثناء حياته . ويظن ان هذا الصيت سيعمر بعد موته

وهو حريص على ان تترجم له معظم الصحف الاوروبية ، ويبدو عليه الألم من النقد الهين او اللاذع الذى كثيرا ما تتناول به الصحف اعماله او قيمته الشخصية . ويوقن ان مهاجمات الكتاب له قد اساعت إليه شر الإساءة ، ويرد إليهم - إلى حد كبير - ما أصاب أماله من خيبة . وقد روى شخص جدير بالثقة أن « حسين بك » قد سمع محمد علي ينسب معارضة فرنسا وانجلترا لمشروعات استقلاله إلى تأثير جريدة « الزمير » قبل كل شيء . فقد اطنبت هذه الجريدة فى إذاعة هجائه والافتراء على حكومته . وأضاف الباشا قائلاً :

— إننى لأعطي راضيا مليون ريال فى سبيل منع هذه الجريدة من الظهور . وانها غلطة منى هى التى سمحت بوجود هذه الجريدة ، فقد كان محررها تحت تصرفى مدة طويلة ولكنى صدقته .

وقد سلبته انفعالات حياته السياسية كل راحة . فهو ينام قليلا ، وهيهات أن ينام نوما هادئا . ويسهر إلى جانبه دائما عبدان ليعيدا عليه غطاءه الذى يدفعه عنه بلا انقطاع .

ورغم قصر الوقت الذى يخصصه للنوم ، فهو دائما فى نشاط قلما تجد له نظيرا . فى الساعة الرابعة صباحا تراه ناهضا . واقفا على قدميه ، ليقتضى نهاره كله مع نظاره او مستعرضا فرق الجيش او مفتشا على أعمال البناء او أعمال أى مؤسسة يروقه ان يراقب إدارتها .

وهو يجيد الحساب وان لم يكن قد تعلم الحساب قط . ومعروف انه كان قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره حين بدأ يسعى إلى تعلم أول مبادئ القراءة والكتابة . ويقال ان جارية من جوارى حريمه علمته حروف الهجاء . ثم قام شيخ بتعليمه الكتابة . وتلك إحدى الخصائص المميزة لحياته . وهى جديرة بالذكر حقا إذا فكرنا فى المشاغل السياسية الخطيرة التى لابد كانت تستغرق ذهن هذا الرجل .

وهو جذاب فى مجالسه الخاصة ، محب للاستطلاع ، تدل أسئلته على جهل ساذج مع إظهارها لكثير من الدهاء والفهم . وفى محادثته أحيانا

كلمات موفقة تلقىها بديهة حاضرة . فقد اشاد أحد القناصل ذات يوم
بلوحة الرسام « هوراس فرنيه » التى تمثل مذبحه المماليك . والتى اثارت
إعجاب الجميع فى متحف باريس . فقال الباشا :
— يستطيع الرسام ان يجد نظيرا لموضوعه فى مذبحه ممالك بونابرت
بمروسليليا .

عصف الاستبداد

وطبعه مستبد عنيف . ولكنه .. كجميع الشرقيين تقريبا .. يستطيع ان
يملك نفسه فى معظم الأحوال . وان يقود الأمور بمهارة إلى الوجهة التى
اعتزم بلوغها . وهكذا تجعل منه حدة مزاجه رجلا جسورا مقداما . كما
تجعل منه قدرته على كبح حدته عند الحاجة قائدا ماهرا وتعطيه فن الإمرة
حسب الظروف .

وعلى الرغم من سرعة غضبه . فإن طبيعته طبيعية كامنة تحول أحيانا
دون توقيع عقابه . وتحمله سماحة قد تبدو لنا لونا من التهاون إلى العفو
والرضا بل وإلى نسيان الفدح الأخطاء . وقد املئ عليه هذا الميل نحو
العدالة والحلم أهم القرارات الإدارية . الا وهو القرار الذى يخرم الكبراء
من الامتياز الصارخ الذى كان يخول لهم معاقبة عبيدهم وتابعيهم
بالإعدام . فقد أراد أن يكون ذلك القصاص مصدقا عليه من الوالى قبل
تنفيذه . واضعا بذلك حكما بين المتهم والقاضى . وفترة اجلب للسلامة
بين وقوع الذنب وتوقيع الجزاء .

على ان استبداده قد يشتط أحيانا إلى حد عجيب . وتسجل هنا مثلين
غريبين لذلك :

من بين النيات الغادرة التى وردت لمحمد على من أوربا . كان غرس
لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة فى قلب الأرض . فى موضع تغمره أشعة
الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير . فازدهرت واينعت . دون
ان يتنبه السيد إليها . غير ان اجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة .
فلاحظ محمد على للمرة الأولى انها جميلة وأمر بان توضع النبتة فى
صندوق . وتنقل تحت شجرة الجميز التى تظلل كشكه . وهنا اجترأ
البيستانى على الاعتراض بان الزهرة قد تموت من هذه العملية . فقطب

الوالى جبينه واقسم ليدفنن حيا ذلك الارعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التى استأثرت فجأة بإعجابه . وفى اليوم التالى كانت الداليا موضوعة بعناية فى صندوق عريض فى ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد أعترها الذبول كانت قد أخذت تميل مقراخية على ساقها الطويلة . فجىء بالبستاني ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بان النبات لا يمكن ان يطيع الاوامر كما يطيعها الناس . اخلى طرفه .

ومن ضمن اشجار الفاكه التى وردت من أوروبا كذلك كان نوعان او ثلاثة من شجر البرقوق . اعجبته فاوصى بستانيه ان يعتنوا بها واثمرت إحدى الشجرات بعض الثمر . وبدا للباشا الذى تابع بشغف نمو هذه الفاكه ان يتذوق شيئا منها وهى مازالت فجة خضراء . فوجد لها حلوة الطعم . وامر مدير البستان بان يلتفت التفاتا خاصا إلى ثمرات البرقوق الخمس او الست الباقية . فكان ان احيطت الشجرة بشبكة تمتع الطيور من الوصول إلى تلك الثمرات الثمينة . ونهض امامها حارس يبذل انشط المراقبة . ولكن ، من نكد الحظ ، ثارت عاصفة من هذه العواصف التى تكثر فى مصر وانقضت على محط ذلك الاهتمام الشديد . فلما انجلت لم يكن على الشجرة إلا برقوقة واحدة ! على انها اصبحت - نتيجة للتعويض بلا شك - من الروعة بحيث كانت تخيل إليك انها استوعبت وحدها جميع العصارات التى كان مقدرا ان تغذى ثمرها وافرا . واخيرا اوشكت « البرقوقة » على النضج . غير ان الباشا كان قد تغيب لبعض الوقت عن زيارة البستان وكأنه نسيه . ومرت الايام دون ان ينبىء شيء بنزلة سامية عن قريب فى شبرا . واشتد قلق المدير . فتداول فى الامر مع مرعوسيه . وتقرر بالإجماع ان الثمرة قد بلغت تمام نضجها وانها إذا لم تقطف باقت فى خطر السقوط من غصنها او التلف على الشجرة . خلعوها إذن عن غصنها فى احتفال كبير . ثم غلغوها فى رقة بزغب القطن المندوف . وادعوها فى علبة صغيرة . وختموا العلبة وشيعوها مع رسول خاص إلى سموه . كان ذلك اثناء شهر رمضان . وكان محمد على - على اثر وعكة خفيفة يتناول طعامه فى الحريم . فقدمت إليه البرقوقة بين فواكه اخرى بيد خصى لم يعلم علم هذه الثمرة ومكانها من موله . وتناول الباشا الثمرة دون أى انتباه . إذ لم ينبئه احد بامرها . واكلها دون

ان يخطر له انها واحدة من تلك اللواتى اوصى بها وصاياه الصارمة .
وبعد ذلك بأيام ، اقبل الباشا على اليستان ، ومضى راسا قبل كل شيء
نحو شجرة البرقوق . ولم يكن عليها برقوق ! وقبل ان يستطيع امرؤ ان
يشرح للباشا علة ذلك الاختفاء المؤسف ، كانت قد اخذت الباشا رعدته
العصبية وهى الظاهرة التى تصحب اعنف غضبه ، وكان المدير قد طرح
ارضا - بإشارة منه - وعوقب بالعصا عند اسفل جذع الشجرة . واخيرا
تمكن الرجل المسكين من ان يجد ادنا صاغية ، وجيء بشهود فسمعت
شهادتهم ، واستدعى الخصى ، وصاح به الباشا منذ ان لمح اتيا من
بعيد :

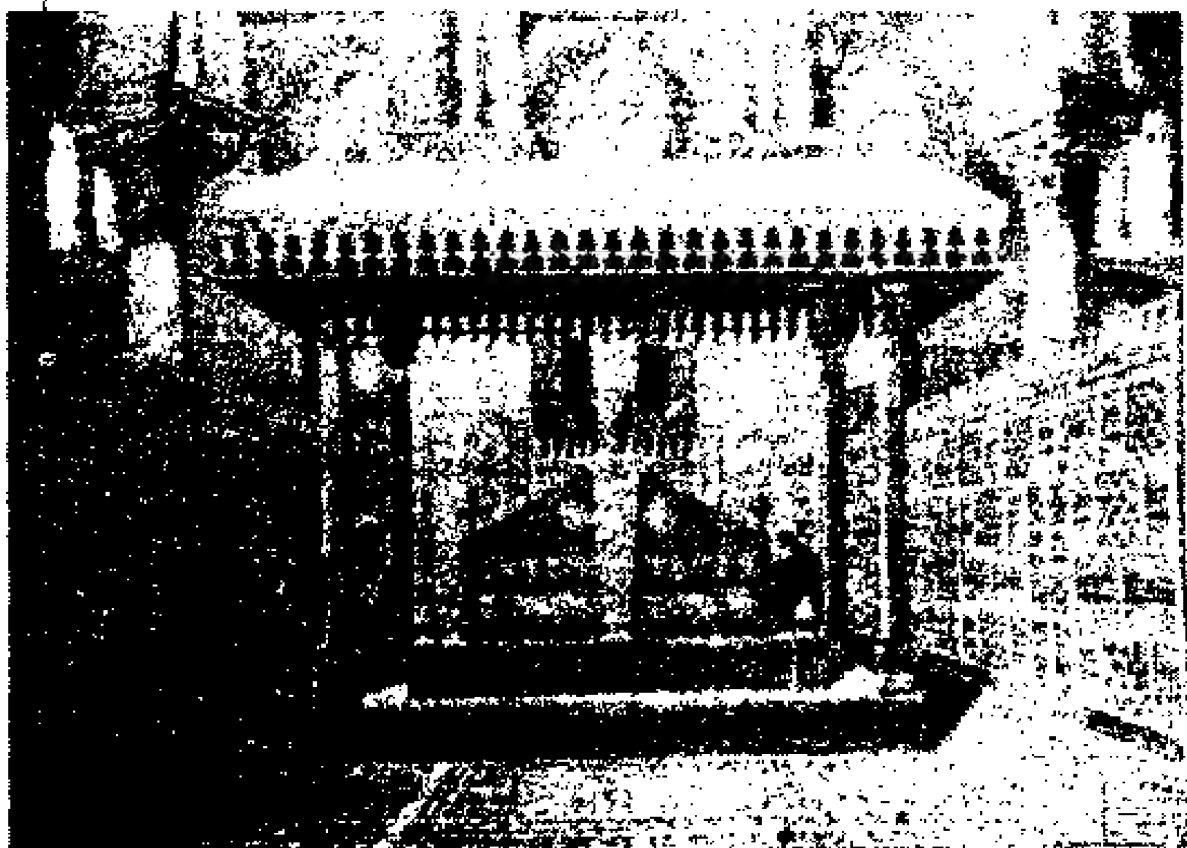
— هل أنا اكلت برقوقة ؟

— نعم يا صاحب السمو ، لقد قدمت لكم واحدة على مائدة الإفطار منذ
بضعة أيام .

— ولم لم تخبرنى إلى ذلك !

وإذا رأى الخصى الحركة التى صاحبت تلك الكلمات ، اندفع إلى
الجواد المسرج فى بذخ - جواد الباشا - وتوارى سريعا خلال الحقول
قبل ان يحاول احد ان يتعقبه . وظل المسكين مختفيا عدة أيام . ولكن
الباشا تكرم بالعفو عنه حينما تشفع له فيه بعض المقربين .

* * *



ظالم باشا

ولنبادر فنعلن أن الوالى ، رغم نزواته الاستبدادية ، قد برهن فى ظروف كثيرة على ولاء جم ونبل صحيح . فهو لم يوافق قط على أن يسلم للباب العالى الثوار العديدين اللاجئين إلى ولاياته ، بل حمى فى ورع - أثناء ثورة اليونان - أولئك اليونانيين الذين كانوا فى مصر وأبقى عليهم فى وظائفهم . استنادا على هذه الشواهد العارضة ، ومع ذلك فإننا نتورط فى الخطأ إذا قلنا أن فى ذهن الباشا أفكارا منطقية عن العدالة وأن فى قلبه حبا حقيقيا لها ، وأنه قادر يوما على أن يشتغل اشتغالا جديا فى ولاياته برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان ، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد أن يفرض على جميع رعاياه بلا تمييز شريعة جامية ، ووصاية تقوم بها إدارة منتظمة للقضاء .

إن القانون الذى أذاعه محمد على ، والذى اطنب المطنبون فى الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته . نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اقتخاذه . ولذا سرعان ما أهمل هذا القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة . فى الأحكام التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة أو غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه . وما كان يستطيع غير ذلك ، وإلا كان عليه أن يطيح أولا ، دون تردد ، بأمنائه ، دعائم سلطته ، وأن يحرم على نفسه عددا كبيرا من المظالم .

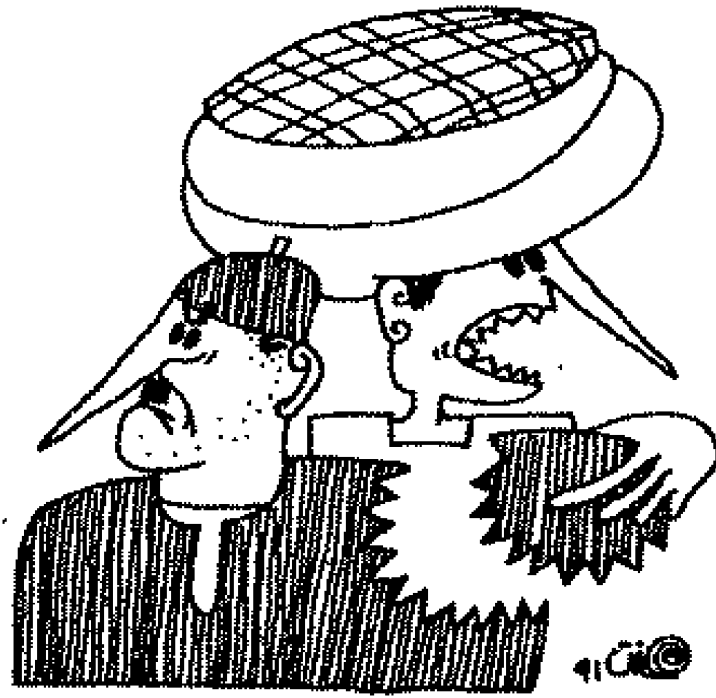
واضع القانون ينتهكه : جنسية مصطفى مختار بك

ولعل أول مجرم كانت هذه النصوص الجديدة خليقة
بان تذال له هو أهم محرريها ، « مختار بك » ، الذي رغم
تربيته في فرنسا لم يفقد شيئا من الأذواق الجنسية
الشائنة التي يتصف بها أهل بلاده . [مصطفى مختار
مولود في مدينة قوله أيضا] . فبعد فراغه بأيام
عشرة من نقل تلك القوانين ، هاج غضبه إذ صد
شهواته المنحلة فقتل عريي من خدمه صدا قاطعا ، فأمر دون رحمة بضربه
حتى مات التعس تحت العصا .

ولقد رأى ظالم باشا حين بلغه نية هذه الحادثة - كما لا يزال يرى ذلك
كثير من الكبراء في مصر - ان « رأس فلاح لا تساوى شعرة من رأس
تركي » .

وبالرغم من النصوص الصريحة الصارمة الواردة في التشريع
الجديد ، لم يكن على « مختار بك » من بأس إلا ان يدفع دية قدرها
٥٠٠ قرش أي حوالي ١٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ أقل من مرتبه عن يوم واحد .
وهكذا ترى أنه بهذا السعر يستطيع ان يقتل ، دون قلق ، أكثر من ثلثمائة
 وخمسة وستين رجلا في السنة . ولعل هذا الحكم - فوق ذلك - لم يصدر
إلا رعاية للمظاهر ، فليس من المؤكد أنه قد تنفذ وإن عائلة الضحية
قد تمكنت من قبض ذلك التعويض التافه .

* * *



قتل وتعذيب

وليس تلك هي الواقعة الوحيدة التي نستطيع أن
نكشف عنها الحجاب ، بل إن هذا النوع من الوقائع
متواتر : فلكي يثار لمعارضة مشابهة أو لسبب آخر
لا مسوِّغ له القى « سليم باشا » بأحد مماليكه في
الماء ، وقتل « ماهوبك » أحد مماليكه تحت العصا .
وفعل مثله « شكرى أفندى » . ولم تنل جنایات القتل

هذه أى عقاب إلى الآن .

لقد انقضى عامان منذ نشر هذا التشريع الذى راق للبعض أن يروا فيه
عربون عهد من المساواة المدنية والسلامة الشخصية لجميع أهل الولاية
وسكانها الأجانب ، ولكن مازال رجال السلطة يعذبون الفلاحين بالقرميد
الأحمر المحمى فى النار ، ومازالوا يسمرون أذانهم ، ويمزقون أجسامهم
بضرب « الكرباج » لإرغامهم على دفع الضرائب والاتاوات للباشا ، أكل
الشعب ، فهو خليف بهذا اللقب الذى أطلقه هومير على أحد ملوك
الآلياذة .

* * *

دستور الابتزاز

ان الاختيار الحقيقي لنظام حكم شرعى ، وتقليد الرعايا حق الرجوع إلى سلطة الدستور ذات السيادة ، وخضوع رئيس الحكومة وعماله للحكم الأعلى الذى يصدره عن قضاء نزيه ولا مهرب منه ، كل ذلك لو تحقق لكان شر ضيق يصيب إدارة الوالى واسلوبه فى التصرف . ولا شك فى انه استحق إلى حد ما لقب : ظالم باشا ، الذى منحه إياه الشعب وقد أصبح على يديه فى درك من البؤس لا يستطيع معه أن يمنحه اقذع منه .

* * *

ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا تظير لها . انه لا يود أن يدفع مرتبات لأحد . لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر أمره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون أشد العناء فى تحصيل مرتباتهم واجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون أنفسهم مرغمين فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك - للحصول على نقود - على أن يبيعوا بثمن بخس تلك السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ .

لا توجد نقود فى خزائن صراف حكومى يقدم إليه امرؤ ، تذكرة ، أى إذن صرف ، وإنما هو يفتح ما لديه من مخازن للمطالب بحقه ، ولهذا الأخير أن يختار - إذا كان ثمة مجال للاختيار - وأن يخضع للسعر المفروض . ويتوجه الدائن الذى لا يناسبه أن يأخذ مقابل حقه بعض منتجات مصانع الوالى - يتوجه إلى المرابين الذين يخصمون ورقته المالية بتخفيض قيمتها الاسمية تخفيضا كبيرا تنقضى عنه السلطة الصناعية ضريبة لولاها ما كانت تائن بهذه المعاملة .

* * *

تدمير المعدات .. على حساب الجيش !

ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على فى سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وأنه ليدل على خُصب قريحته فى التلغيفات المالية : فيبعد أن أخذ الاوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى أبعد من ذلك الامد ، فارسل الأمر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود واحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمر العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود . وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنها هذا الإجراء الذى نفذه المرعوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر . وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة . ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رايه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب .

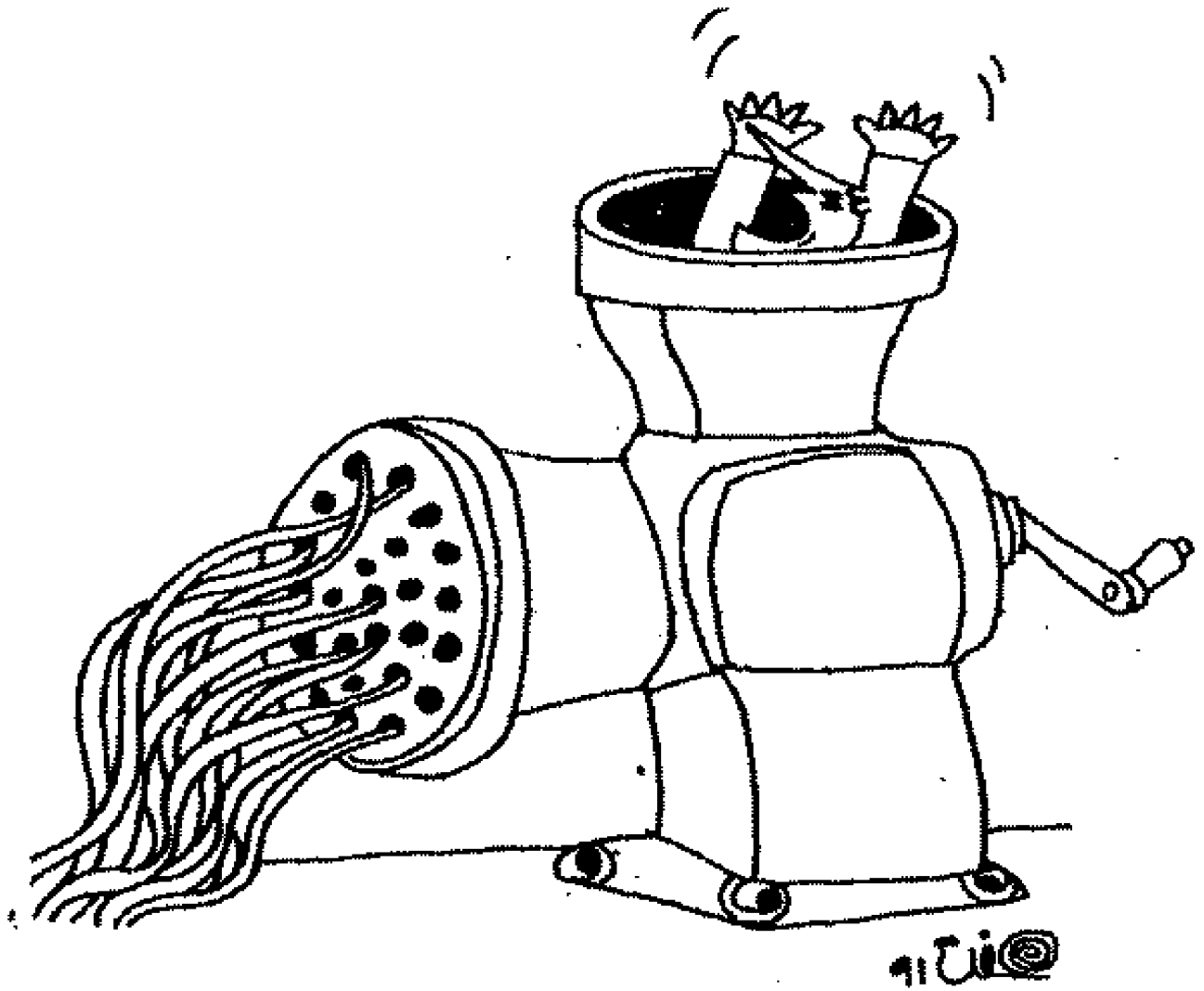
وفهم الباشا بعد لاي أنه لم يكن على الأقل من حُسن التصرف أن يتعدى الحدود بهذه المصادرة الاستغلالية التى كانت خليقة بأن تشير سخط جيش لم يزل مصير الوالى متوقفا عليه بين لحظة وأخرى .

مبدأ « الشَّعْبُ كَالسَّمِسمِ »

ويبدو لنا فى وضوح ان وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شىء يتناقض مع تلك الميول . ولو قد توافرت نية فعل الخير واعتناق أهل مصر المسخزين وإسعادهم ، لما احتاج الأمر بعد ذلك إلى محاكاة نظم الغرب وأخلاقه ، إذ ان فى آيات القرآن من الأمر بالمعروف ما يكفى لهذا كله ، ولا اقتصر العمل على اتباع وصايا النبى وأوامره . وبين المراسيم المفصلة التى جاءت فى الكتاب الشريف ما ينكر الغصب والاحتكار ويعاقب عليها عقاب السرقة تقريبا . ولكن يبدو أن محمد على استمد وحيه الفعل من المثل القائل :

« إنما الشعب كالسمسم ، ينبغي أن تطاه وتسحقه لكي تخرج منه

* * *



ثورة الصعيد

زاد محمد على الضرائب زيادة فادحة أثارت تدمير الأهالى . الفلاحون الذين انتزعهم الوالى من عائلاتهم ومن حقولهم وحشدهم فى كتائب الجيش او المصانع ، باتوا يلعنون تلك النظم التى تعتصرهم دون أن تسفر عن أى مكافأة لهم أو أى نفع يعود عليهم .

انتشر السخط بين الناس . وانطلقت الثورة فى الصعيد فى أوائل سنة ١٨٢٤ إذ خطب أحد أولياء « دراو » فى الجمهور أثناء صلاة الجمعة والهيب عصبية الملا . وشاعت المصادفة أن تنضم إلى جموع الساخطين عدة فصائل من الجيش الجديد كانت سائرة إلى « سنار » لتحل فيها محل ما بقى هناك من الجنود غير النظاميين .. وهكذا كان الجيش عوناً قوياً للثائرين . وسرعان ما أقبل على حزبهم مئات من الفلاحين فبلغ عددهم حوالى عشرين ألف رجل . .

غير أن هذه الثورة فى مظهرها لم تنتج من العواقب الوخيمة على الباشا ما كان يتوقع المرء منها ، بل أدت على النقيض خدمة للوالى الذى بدأ أنه من شدة البطش بحيث يستتب له الأمر . ذلك أن الثائرين ، وقد ساروا إلى غير هدف محدد ، تحت قيادة رئيس غير كفء لم يستمد شخصيته من غير التعصب ، لم يلبثوا حتى فقدوا فى ملاحم متفرقة نحو ثلث قواتهم ، وأجبروا على العودة إلى النظام وعلى الخضوع .. بعد هزيمتهم .. لاستبداد أثقل وطأة مما عرفوا قبل القيام بثورتهم .

* * *

الشعب يحاول عزل محمد علي

وما دمنا قد سجلنا اللعنة التي تتردد على شفاه
الفلاحين بلا انقطاع ، فلا بد لنا أن نحاول تعليل تلك
الواقعة التي أعارها الرأي العام أهمية كبيرة وضج
لها ضجة شديدة في حينها ، ألا وهي المطالبة
- المزيفة - بتثبيت محمد علي .

بينما حاول المصريون معبرين عن شعورهم الإجماعي أن يسعوا لدى
الباب العالي سعيا رسميا متوسلين عزل حاكمهم ، حدث فجأة تحول
واضح في اتجاه العقلية . وكان ذلك بطريقة سريعة وفعالة . ففي منتصف
نوفمبر عام ١٨٠٤ ، استدعى الوالى إلى القاهرة جميع نظار وشيوخ
الأقاليم المصرية واجتمعوا فى القلعة ، حيث خطب قيهم « حسين باشا »
- الذى أسندت إليه مهمة رئاسة الجلسة - خطبة بليغة عن ضرورة إدخال
إصلاحات فى إدارة الأقاليم للتخفيف عن الشعب ، فأثار أمام سامعيه افقا
سعيدا . وبعد تلك الخطبة الخالصة ، تبسط فى أخذ رأى كل منهم ، وسمع
المطالب والرغبات ، وأغلق الوعود على الجميع ، ثم تصنع أنه مضطرب
إلى مغادرة الاجتماع فى الحال على أثر تسلمه رسالة من الوالى ، ورجا
النظار والشيوخ أن يختموا سريعا باختتامهم فى الجزء الأسفل من ورقة
تعهد بأنه سيكتب عليها محضر مؤتمرهم متوخيا الأمانة فى ذكر جميع
مآدار . ولم يجرؤ أحد من الموجودين على الرفض . وقام الباشا الأمين
بارتكاب تبديل « برىء » ، فقد كتب على الورقة البيضاء الممهورة بالأختام
التماسا من ممثلى الشعب المصرى للسلطان عبد المجيد يرجون فيه
تثبيت محمد علي واليا على مصر . ورفع علماء القاهرة على أثر خديعة
أخرى مطلبا لنفس الغرض . فأى ثقة يمكن أن تعار هذه العرائض اللطيفة
المادحة ، التي أفسد بها صانعوها أمانى كثير من البسطاء ؟ .

ابن « قولة » البسار

إلى جانب كثير من الملكات الملحوظة ، يتحلى محمد على بصفات الرجل الفاضل في حياته الخاصة . إنه أب بار ، وصديق أمين ، ويندر أن تجد بين الأمراء الشرقيين مثل قصده واعتداله في شهواته ونقاء أخلاقه . وتضفى عليه حساسيته الكبيرة شيئا مؤثرا يكتسب به في يسر عطف المحيطين به .

لقد أثرت وفاة أولاده في نفسه اثرا عميقا ، وكان الناظر إلى وجه هذا الأب يستطيع أن يتابع أثناء أمد طويل ما وسمه به الحزن من علائم الألم . وكثيرا ما ذرف دموعا سخيا عندما فقد رفقا له في الحياة العسكرية . وقد اشرك في سعده عددا كبيرا من أتراب الشباب ارتفعوا منزلة واغتنوا بفضل حظوته . ووجد بنو وطنه لديه ترحيبا كريما دائما .

وظلت ذكرى مسقط رأسه عزيزة عنده . وباطالما أظهر عاطفته واهتمامه نحو الربوع التي درجت فيها طفولته ! ويقال إن رعاياه المولودين في « قولة » معفون من الضرائب ، لأنه يؤديها عنهم للخزينة . ويقال أيضا إنه أصدر الأمر بحفظ بيت أبيه وعدم التعرض له بأي تغيير . وما زال يعيش في ذلك البيت اقرباء له قد غمرهم بنعمه .



الشيخ الشاب

يحب الباشا أن يذكر أنه يبلغ من العمر سنا أكبر مما يبلغ في الواقع ، لكي يلفت نظر الناس إلى الفتوة التي مازال يتمتع بها . ففي عام ١٨٣٦ كان يقول إنه بلغ الثالثة والسبعين ، مما يرجع بمولده إلى عام ١٧٦٣ على حين أنه قد ولد عام ١٧٦٨ أو ١٧٦٩ .

ومن نافلة القول أن نذكر صفاته العسكرية . ويكفي ما يحدثنا به عنها المركز الذي بلغه . لن نضيف سوى القول بأنه في حياته الخاصة كثيرا ما دفع الشجاعة إلى حد التهور . ولم تكد تنقضي الآن أربع سنوات أو خمس منذ راه القوم يمعن على ظهر جمل في رحلات طويلة شاقة وسط الصحراء ، أو يتحدى جنادل النيل ، ليزور « فروغلا » ، أي يبتعد عن عاصمته ستمائة فرسخ .

فى مصاف الأبطال !

يستفسر الباشا كثيرا - وهو من انصار الجديد - عن أمم أوروبا ، تلك التي يحاكىها فى شىء من التصنع ، بل ويحاكيها فى أخطائها أيضا . وعلى الرغم من تلك النعرة ، مازال وطنه يؤثر تأثيرا ما على افكاره وسلوكه . فهو يتحدث فى حماس عن مقدونية ، وعن الاسكندر بطله الأثير ، وعن البطالمة ، وكأنه قد أصبح من أعضاء الأسرة لمجرد أنه خرج من نفس الأرض .

ذات يوم روى بعضهم على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر ، فصاح فى فخر : « وأنا أيضا من فيليبية ، (هكذا يدعو الأتراك أرض مقدونيا ، نسبة إلى فيليب أبى الاسكندر) .

ونابليون محل إعجابه كذلك . ولكن البطل المقدونى يستأثر أكثر منه بلب محمد على . نظرا لما ذكرنا من روح اعتداده بأسرة يظن أنه أحد أفرادها . وترجمة حياة كل من هذين العلمين هى مطالعته المعتادة . غير أنه يضيف إلى موضوعات تأملاته أيضا كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، مازجا أمثلة البطولة بدهاء السياسة ، وقد أمر فترجم له هذا الكتاب خصيصا .

* * *

مصر وسيلته لا غايته

ولعل الآراء لم تتضارب فى الحكم على رجل تضاربها فى الحكم على محمد على . فقد رأى البعض فيه بطلا جدد عهده مصر ومدنها ، على حين جعل منه الآخرون مغامرا بارعا سعى للوصول إلى السلطة لغرض واحد هو السيادة واستغلال البلاد لتمتقته الشخصية لا أكثر .

ومهما يكن من أمر تناقض هذه الآراء ، فمن الواضح ومما ينبغى أن يعترف به الجميع أن محمد على مدين بمكانته وصيته لشدة فطنته ، وأطراذ مثابرته ، وقيادته الشاملة ، وعزيمته الكبيرة .

لا شك فى أن محمد على رجل ممتاز . ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها ؟ وهل حلت حكومة إصلاحية محل طغيان المماليك ؟ على هذا التساؤل سنحاول أن نلقى بعض الضوء .

من الخطأ أن يقال إن مصر قد تمدنت ، فهي لا يمكن أن تتمدّن فجأة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتالية ، ولا يمكن أن تأتي ارتجالاً في ربع قرن . وإذا لم ننظر إلا للنتائج في تقدير الأمور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للأسف بعيدة عن أن تحظى به .

من الحق أن محمد علي حين أراد إدخال تجديداته في البلاد قد راعى العادات والمعتقدات والأوهام المتمكنة المستحيلة ، ومن الحق أن غيرة السلطان المتوجسة قد أقامت في سبيله عقبات يكاد أن يستحيل تخطيها ، وأنه كان عليه أن يتابع أعماله بأن يجند جيوشاً ويجمع ضرائب لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها ، وأنه كان عليه أن ينظم البلاد بأن يلقي الأقاليم في الفقر كي يغذى حروباً لم تكن لتعود عليه إلا بالمجد الأجوف . يالها من وسائل عجيبة لتحضير البلاد ! .

لقد اعتصر مصر بعنف انتهكها ، وتعقب المصري في صرامة شديدة ليجعل منه جندياً حتى لقد كانت القرى تقفر من أهلها كلما اقترب نحوها رجال التجنيد . على أن وجهة تفكير الباشا بين هذه المشقات جميعاً لم تكن تخفيف بؤس الشعب ولا إصلاح المفاسد التي بخسته قدره ، ولا تربية أمة جديدة أقل ذلاً وأكثر ذكاء .

* * *

لقد أنشأ محاربين هزموا الوهابيين والعثمانيين ، وأنشأ بحارة وبنائين وعمالاً ، وأقام مخازن للسلاح ومصانع ومدارس ، ولكن هل صار الفلاح أكثر نظافة وأوفر غذاء وأحسن أخلاقاً وتربية ؟ لقد بات الباشا يتصرف في رؤوس مال كبيرة ، ولكن كيف حصل عليها ؟ أنه لم يحترم شيئاً : غصب ممتلكات الممالك والمساجد والأوقاف والأملاك الخاصة ، دون تمييز ، ومنذ أن أصبح السيد المطلق لوادي النيل الخصيب ، غير زراعته وإدارته سعياً وراء غرض واحد هو زيادة موارده الخاصة . ولقد أضاف إلى استيلائه على الأرض احتكار الصناعة والتجارة ، فغدا المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد . ومن هذا السلطان العريض لم يستخرج سوى أبهته الشخصية . لم يستمد من ذلك كله إجراء فعالاً حاسماً ضد ما يرسف فيه شعبه من بؤس وجهل ، بل ولم يعمل في مصلحة المنشآت التي أسسها حربية كانت أو بحرية أو صناعية ، إذ

لم يقدر مستقبلها ببعد نظر ثاقب حقا ، ولم يرصد عددا كافيا من التلاميذ للنهوض بها ومواصلة نشاطها بعد موته .

لقد استدعى محمد على من أوروبا عمالا فحضرُوا وبنوا سفنا واداروا ورشما مختلفة ، ولكن أهم ما فى الأمر قد أهمل ، فانهم لم يدربوا إلا عددا قليلا جدا من العمال الذين يصلحون للحلول محلهم .

أين تربية الشعب .. ؟

انشئت المدارس لتحقيق غرض عسكرى محض . وتخرج فيها نفر قليل من المؤهلين المقتدرين . وكيف كان يمكن أن يأمل المرء منها غير ذلك ؟ لم تكن توجد هناك العناصر الاعدادية ، وكان ينبغي فى طفرة رفع اشخاص .. لم نلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التى تنتقل فى أوروبا من جيل إلى جيل بانتقال الحياة .. إلى مرتبة استيعاب العلوم . إن صنع اطباء ومهندسين وامثال اولئك وهؤلاء من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى تنمو تحت تأثيره ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

إن صنع اطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا ذلك فحسب ، بل ما تخيلوا يوما وجود المفاهيم التى أصبحت شائعة لدى طلبة المدارس الدنيا والعليا فى بلاد الغرب ، وإن محاولة تكوين عقول واعية - فورا - من مدارك ناشئة جانبت إلى أقصى حد مختلف درجات التعريف بمبادئ العلوم هذه التى يأتى تحلق فى جو المجتمعات التى تحضرت فى بطن بحيث يبدو أنها افكار وراثية لدى الفرد يستنشقها منذ مولده ، إن تصورا للأمور فى مثل هذا التهور لم يكن من شأنه أن ينتهى إلا إلى الإجهاض . لم يعرف محمد على فى حياته أى تربية أولية ، فورطه فى الخطا اتخاذ من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له أنه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين أنه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع - وكان ذلك أقصى ما يبلغه - أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الأساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة

من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها .
لقد بلغت استهانتها بالتعليم ، إلى أخذه بعض التلاميذ من مدرسة
الفرسان لضمهم إلى خدمه . وفي عام ١٨٤٠ تخير ثلاثة من أفضل طلبة
الأسن ليعينهم طهارة تحت رئاسة كبير طهارة قصره ، وهو فرنسي .

تميز الأتراك وتسخير الفلاح

لم يفكر محمد علي قط في تمكين الشعب من التحرر . لقد احتقر هذا
الشعب دائما واحتقر لغته .. وجميع الرتب في الجيش من نصيب
العثمانية وعبيدهم ، وكذلك الحال في المناصب العامة .

أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة في أيدي رجال
الإدارة ، أصحاب الأمر والنهي ، والتصرف في قوم جهلة لا نصير لهم
ولا خوف من شكواهم وتذمرهم .

وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل أرضه ،
بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما أنه لم يجن
إلا قطننا رديء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير
من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال ، فإذا امتنع كان
جزاؤه الضرب بالعصا ، وإذا أذعن ودفع فوراءه الكرياج أيضا لإرغامه
على دفع مبالغ أكبر . وهم يأخذون الفلاح في السخرة ، وبدلا من أن
يدفعوا له أجره يقولون له أن قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة
التضامن !

البؤس لمصر الغنية

ولا يرجع سوء حالة مصر المالية إلى الحروب المتعددة الطويلة
فحسب ، بل إلى الإصلاحات التي لم تفهم فهمها صحيحا وإلى المشروعات
التي لم يحسن ولي الأمر تقديرها أو تعجل في تنفيذها ، وإلى رذائل
الإدارة ، وجشع الموظفين ، فإن هذا كله مما يدمر الثروة العمومية . وإنها
لعقبات في سبيل رخاء البلاد ، تضاف أضرارها إلى مصائب الحروب ،
وتواصل عملها الفاسد أثناء السلم .

وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد يؤس المصريون ، لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما تكدست جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون ان يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها .

* * *

ماذا عمل لمصر .. ؟

لقد قنع محمد على بأنه جعل الصحف الأوروبية تضح باسمه ، وأنه أخضع الشعوب المحيطة به وأرهب السلطان في اسطنبول . لقد وجد أنه هكذا أدى رسالة كبيرة فلم يشغل بسعادة مصر إلا ثانويا وفي الحدود التي تكفل لمطامعه وسائل تحقيقها .

وبعبارة أخرى إن محمد على - هذا الرجل الذي هيأته الأقدار لانتشال مصر ! - لم يع تمام الوعي مدى أعماله : لقد أقبل ليشتيد ركنا تهدم في بناء الشرق ، فتناول بضعة الأحجار التي سقطت من هذا البناء ، وبنى في عجلة مسكناً غير ذي أجل بدلا من إقامة صرح جديد كان ينبغي أن يشيده المعمارى الحق .

وجميع تصرفاته تحمل هذا الطابع ، طابع العمل المؤقت الإنانى ، الذى يبدو عليه حتما لون من الإلهام . إنه لم يحم الزراعة قط ، وكان تطلعه للكسب وحده هو الذى دفعه - فيما يظهر - إلى أن يعطى للشرق مثلا نفعا من الطرق الأوروبية في الزراعة والصناعة . ومع ذلك فالمرء يتساءل كيف اتخذ الجندي المقدونى هذا السبيل ، وكيف أدرك الرجل الأسمى ضرورة الخروج على المألوف التماسا للموارد والتماسا للعظمة .

* * *

إن الناظر إلى جميع الأعمال التى زخرت بها حياته ليرى واليا مثلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع أساس الرخاء الذى ينبغي أن يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لأعمال السلم من ناحية ، مدربين على اساليب الدفاع من ناحية أخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بأن بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه .

* * *

هذا الإجهاض ..

ولو أن محمد علي توحى العمل بطريقة متجانسة منطقية ، لكان عليه قبل أن يجعل من مصر بلدا فاتحا ، أن يجعل منها بلدا تاجرا ، زارعا ، سعيدا . وكان عليه أن يتبع برنامجا كاملا من بث حب القوانين في شعبه ، وحب النظام ، وحب الخير العام ، والثقة في التجديدات ، بدلا من أن يفرض عليه بالعنف ما يعود بنفع مباشر لشخصه . كان ينبغي عليه الإقناع لا الضغط واستخدام القوة الفكرية لا القوة الغاشمة . وكان عليه ألا يصدر في الوظائف العليا عن إثارة صيبياني أو دسيسة أو نرق ، بل أن يستند إلى الخادم الحق وصاحب الجدارة .

لقد كانت الزراعة والصناعة خليقتين بأن تصبحا موردين من اخصب موارد الثروة والرخاء لمصر لو انهما وجدتا من الحكومة تشجيعا ومن النظم حماية ، ولكنهما باتتا ضحية المصالح الحربية ، حكرا لمنفعة الباشا وحده ، فلم تغيدا شيئا من نشاط هو في الواقع ظاهري أكثر منه حقيقيا ، وسرعان ما وقف نموها .

جملة القول ان محاولة عملاقية قد أجريت ، ولما لم تكن قائمة على أساس من الخبرة الكافية فقد أحدثت على الرغم من جميع الظروف الموازية ما يحدثه إجهاض رهيب من الآلام العنيفة والإنهاك الشديد . لقد أدى محمد علي مهمته ، وهو الآن مازال على قيد الحياة ، واقفا على أطلال عمل كان يبدو أنه مهيا لأجيال قادمة ، يشهد حكم الخلف عليه .

آخر أيام محمد علي

كان الأطباء قد نهوا محمد علي من أن يرى نساء حريمه . بيد أن ابنته التي كان يحبها حبا جما والتي كانت تسعى دائما إلى أن تكون ذات تأثير كبير عليه ، كثيرا ما كانت تدعوه إلى قصرها حيث تجعل في خدمته جوارى من الفتيات الجميلات كن ينسبن الشيخ نواهي أطبائه . وكان يعاود زيارة ابنته مرارا ، حتى إذا نفدت قواه وعجز عن إجابة لمسات مثيرة ، تناولته ابنته عناقير مهيجة أدت آثارها العنيفة إلى اختلال قواه العقلية .

وإزاء تلك الظروف ، وضعت إدارة مصر بين يدي إبراهيم . وثقلت على إبراهيم حياة أبيه حتى لقد منع الموظفين - قبيل وفاته هو - من عيادة الشيخ البائس الذي هوى إلى درك الطفولة . ويقال إن « سليمان باشا » وبضعة آخرين كانوا من الجراة بحيث تخطوا تلك الأوامر . وعاد عباس باشا - وكان قد اعتزل في الحجاز ليتفادى محضر عمه الذي لم يكن يطيقه - عاد ليتسلم مقاليد الحكومة التي تركها إبراهيم .. غير أنه لم يظهر نحو جده احتراماً أكبر . وهكذا يمكن أن يقال أن محمد علي توفي مهجوراً قد انصرف عنه أولاده . فقد كان سعيد باشا هو الوحيد الذي تبع نعشه . ودفن والي مصر بالمسجد الأنيق الذي بناه في القلعة ، ومن هناك يبدو أنه يشرف على البلد الذي فتحه بعبقريته !



فلاح أسمر ، ارتدى جلبابه الوحيد ، ولف رأسه في عناية بملفحته ليبدو كاسيا وإن ظل حافي القدمين . إنه يتشبث بأخر ما بقي له من مظاهر الاحترام . ها هو ذا بين رجال الشرطة الفخوريين بزيهم التركي النقشيب . وهم رجال شديدو البأس ، مفتولو العضلات والشوارب . طرحوه أرضاً ، فنكسوا رأسه ، وعروا ساقيه ورفعوهما ، وأوثقوا قدميه كيلا تخطئهما ضربة واحدة من الضربات المائة التي مضى يتبادل توقيعها بالعصا شرطيان متخصصان في هذا الفن من فنون التعذيب . لقد جردوه من أدميته .

وعبثاً سجد أمام رئيسهم يستعطفه شيخ البلد الجليل ذو اللحية البيضاء . فقد استوى الرئيس مسترخياً على أريكته الوثيرة ، يستروح في لذة أنفاس الفرجيلة ، وكأنه لا يسمع توسلات الشيخ المتشفع ولا صرخات الفلاح المغلوب على أمره .. وفيه التشفع ؟ ما أذنّب الفلاح الكادح إلا في عجزه عن دفع مزيد من الضرائب للباشا .

تلك هي الصورة الواقعية التي رسمها إدريس أفندي - الفنان والمؤرخ - لاحتجاج علي ظلم ، محمد علي .

لقد عاش إدريس أفندي بين الفلاحين ، وشاظرهم لذع سياط ، المامور ، والحبس في سجن قذر خانق ، لأنه عارض السلطة الغشوم ، وأبى الضيم ، واستنسل في مصارعة رجال الباشا .

(بریشة ادریس الفدی)

محمد ظالم باشا



إبراهيم باشا

صـورتـه

كل ما يبدو لك من خلقة إبراهيم باشا ينبىء عن رجل
فقد سوقى . قامته قصيرة ، وبطانة ، وحركات مفاجئة ،
ووجه انتشرت فيه نقاط حمراء ونقره الجدرى ،
وعينان رماديتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ،
وثغر مبتسم دائما يضيف على وجهه الصغير مظهرا
مرحا - هذه هى الملامح الرئيسية فى خلقته .

وكانت طبيعة إبراهيم محتدمة فائرة ، ولكنك إذا أضحكته بشيء من
التهريج رجع بسهولة عن حدة غضبه . وكان ترقا عنيدا ، حذرا ، يتوجس
من كل شيء ، قاسيا ، مسرقا فى الانتقام . ولقد أبدى فى حرب البصرة
أشنع همجية ، متعلقا بوجه خاص النساء والأطفال ، زاعما أنه يريد
استئصال ذلك الجنس . ولن أتحدث عن جسارته ، لقد ضرب أمثلة عديدة
من الاستبسال .

وكان يحب الانتفاع فلا يدخر وسيلة لتكديس كل ما يطيب له . وبلغ من
تكالبه على الكسب أنه أثناء حياة والده كان يزاول التهريب ويسرب إلى
القاهرة ، تمباك ، مزارعه التى كانت فى القبة . وكان يعرف دائما أن يجد
التعلة لينكص عما وعد .

وكان يتكلم كثيرا كلاما ردىء العبارة خاليا من كل علم ، والويل لمن كان
يجرؤ على أن ينقض ما يقول أو أن يقدم بعض الاعتراض على مشروعاته .
ولا يكاد إبراهيم يعرف القراءة والكتابة إلا فى مشقة ، ويضيف إلى هذه
الذخيرة من الجهل غرورا وكبرياء لا تطاق . أنه لا يعرف فضل المحسن ،
وبالتالى لا يسعى إليه ، وهو أقل من ذلك سعيا إلى إثابته . وقد يصفى
أحيانا إلى رأى أولئك الذين يحيطون به ، ولكن إسرافه فى الاعتداد
ب نفسه وإملاقه من سداد الرأى الذى يتيح للمرء أن يقارن ، ومن المعارف
التي تتيح للمرء أن يناقش ، كل ذلك يدفعه إلى اتباع رأيه دائما لأنه يعتقد
أنه أفضل الآراء . وهو يقول : « أنا إذ أفعل كل شيء بنفسى يغمرنى
المجد أو اللوم دون سواى »

مذبحة المماليك الثانية

التجأ المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة - حيث قتل ١٢٠٠ منهم - إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبيين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « إبراهيم بك » إياهم - وقد أنهكهم قتل إندموا عليه هنا وهناك دون ظفر - إلى أن يلتمسوا المأوى في الجبال التي يقطنها العبيدة والبشارية . واجبرتهم هذه القبائل الهمجية على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد انفق البكوات لإمداد جنودهم بالقوت اللازم في قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلك جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما املق المماليك من راحة الحياة واصبحوا يعانون مالا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التي أرسل إبراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب بل وأن يعيدهم إلى مثل المناصب التي في مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمد علي . ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنستهم الدرس القاسي الذي تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفي نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو أسنا حيث كان مقر قيادة إبراهيم . فلما اجتمع المماليك ، ورأى ابن محمد علي أنه لا ينبغي انتظار قدوم آخرين تسترجمهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالإجهاز على اشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوي صولة فيما مضى . وفي ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد أسود مصير ساداتهم .

وانقذت وساطة طبيب إبراهيم الفرنسي مملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته في أسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال .

إبراهيم القسائد

لم يكن لإبراهيم شيء من ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقائد الجيش ، فذلك كان ما كسبه من فوز راجعا إلى جبن أعدائه بصورة لا يمكن للمرء أن يتصورها أكثر منه إلى تديبره ومهارته . وهو لا يصدر تعليمات واضحة محددة ، وإنما يتكلم كثيرا ، حتى يختلط الأمر على رجاله لكي يستطيع إذا فشلت المهمة أن يلقي وزر الخطأ على أولئك الذين - حسب ما يرى - لم ينفذوا أوامره .

ويقود إبراهيم قواته العسكرية بالتملق والخرافات وإغرائها بالسلب والذهب ، ولا يعاقب أبدا على ما تركبه من فظائع كما أنه لا يثيبها . ولا يشغله أبدا هم المحافظة على سلامة جنوده والعناية بصحتهم ، فإنه يهدمهم بالمشي المنهك ، وقلة الراحة التي يمنحها إياهم ، وقلة الغذاء والكساء .

هذا هو الرجل الذي اجترأ قلم مرتزق (مسيو سكاكيني) على أن يكتب عنه : « إن إبراهيم روح الجيش . نظرتة الواعية ورباطة جاشه من صفات قائد محذك . وولاؤه وتواضعه الخبيل وانطلاقه وسط نار الوغى قد كسبت له قلوب رؤساء جنوده . لقد قدر لهذا الأمير ، الإدارى الصالح ومحب انوار الثقافة والمدنية ، المع مستقبل ، هكذا - على وجه التحديد - يكتبون التاريخ ! »

* * *

إبراهيم العظيم ؟ !

إنما يعرف الرجل بأعماله : ولرسم صورته وأخلاقه ينبغي ذكر الوقائع في المكان الأول لا التفلسف ولا الإشادة بالمناقب ولو كان في ابلغ الأساليب . وما هي ذى بعض الوقائع التي نتحدث من تلقاء نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .

إثناء جولة بدمياط ، شرف إبراهيم باشا بحضوره حفلة إقامها لتكريمه « سرور » القائم بأعمال الانجليز . وبعد راحة القيلولة قدمت له صبية تتراوح سننها ما بين الثامنة والعاشرة سلة من الفواكه والأزهار . فأنسى إبراهيم للقنصل على جمال ابنته مشيرا إلى أنها سرعان ما سوف تبلغ نضجها ، وسأله هل أمها على قيد الحياة ، فلما أجيب بالإيجاب ، أضاف :

— ويحكم أيها النصارى لا تتزوجون إلا امرأة واحدة ! انى اتمنى لك موت الام هذا الاسبوع لكى تحظى باخرى .

* * *

إبراهيم البطل ١٩

أكتوبر ١٨٢٦ :

اثناء حملة شنّها إبراهيم باشا على ضواحي « تريبوليزا » أسر الرجال فتى يونانيا فى كمين . فاحضروه إلى خيمة الباشا ، وسأله إبراهيم عن اسم قائد فرقته ، فأجاب الفتى انه جندى ولكنه لا يعرف شيئاً مما يسأله عنه . وألح الباشا فى سؤاله ، وإزاء رفض الفتى هدهد بالموت ، فرد عليه :

— لو كان لى بذلك علم فلن اخون مصلحة وطنى . فأغتاظ إبراهيم من هذا الجواب النبيل ، وتناول بندقية واحد من حراسه ، وقتله .

ديسمبر ١٨٢٦ :

أقبل رجل يونانى إلى معسكر « مودون » للمفاوضة على تبادل بعض الاسرى . فرفض إبراهيم باشا عروضه ونهاه عن المجيء مرة أخرى . وبعد بضعة أيام ، حضر نفس المفاوض إلى المعسكر لنفس الغرض . فامر الباشا — دون ان يحاول الإصغاء إليه — بالقبض عليه وإلقائه حياً فى تنور معمل لتآجر .

* * *

إبراهيم التاجر

لقد بلغ من جشعه انه كان يعمل دائماً على تأخير دفع مرتبات جنوده واحتجاز شىء منها . وفى المورة لم يدخر وسيلة للاستيلاء على النقود . وهذه بعض الامثلة التى تشهد بذلك :

كان « أنتوناكى ميتاكسا » تاجراً يونانيا يبيع ويشترى لحساب إبراهيم باشا فى مودون . كان يبيع لأفراد الجيش من اللوازم ما يحتاجون إليه ويقبض الثمن اوراقاً مالية تخصم من مرتباتهم . ولما ظل الضباط مدة طويلة دون قبض مرتباتهم ، عمدوا — لكى يحصلوا على شىء من النقود — إلى أن يشتروا ملابس واسلحة من « ميتاكسا » باثمان غالية ثم يبيعونها

فى السوق ليستمدوا بعض المال نقدا . فكان عملاء « ميثاكسا » يشترون نفس السلع بثمن بخس ويمالون بها مخازنه من جديد .

وكان إبراهيم باشا يبيع لجنوده احدى وملابس باغلى من ضعف ما كلفته من ثمن . وفى شهر سبتمبر عام ١٨٢٥ . ارسل إليه فى مودون مسيو « جيتانو مارى » على ظهر السفينة التوسكانية « ثيسوس » بقيادة القبطان « بوسنجوفيتش » شحنة من ٩ الاف زوج من النعل المصنوعة على الطريقة المجرية . وكان الزوج منها يكلف نحو ١٠ قروش . فجعل إبراهيم ثمنه للجنود ريالين .

وكان يضارب فى اسعار العملة . ويضطر فرق الجيش على ان تقيها بالسعر الذى يقرضه . وبهذه المضاربة . كسب يوما فى مودون نحو ٦٠٠,٠٠٠ قرش إذ استغل الامر ورقع سعر الريال إلى ١٦ قرشا بينما لم يكن سعره يتجاوز ١٥ قرشا فى مصر .

وكان هذا الاتجار الدنىء وكانت تلك الصفقات الملفة سببا فى ان ظلت فرق الجيش فى المورة ترتدى الأسمال وتعلنى البؤس .

* * *

رحلته إلى فرنسا

عندما قام إبراهيم باشا برحلته إلى فرنسا . رويت عنه عبارة لو كانت قد صدرت عنه حقا لدلت على ذكاء فريجة لم اكن لاتوقعه منه . فعلى اثر زيارته لقصر « فرساي » وحداثقه . قال انه لا يدهشه بعد ان رأى ذلك الا يكون الفرنسيون اهل دين وتقوى . فانهم يملكون جميع ما وعد به المتقون فى الفردوس . ديارا فخمة . وجنات جميلة . ونساء خالبات الحسن . وانبذة لذيذة .

وقد تبدلت افكار إبراهيم باشا بصورة غريبة أثناء زيارته لأوربا . وخين عاد إلى مصر . كان ينوى إشغال تحسينات عديدة حال موته دون تنفيذها .

كلن يريد ان يجعل من ميدان الأزيكية حديقة عامة . وامر بشراء آلة بخارية لرى هذه الحديقة التى لم يمهله الزمن للشروع فى غرسها .

* * *

وفاته

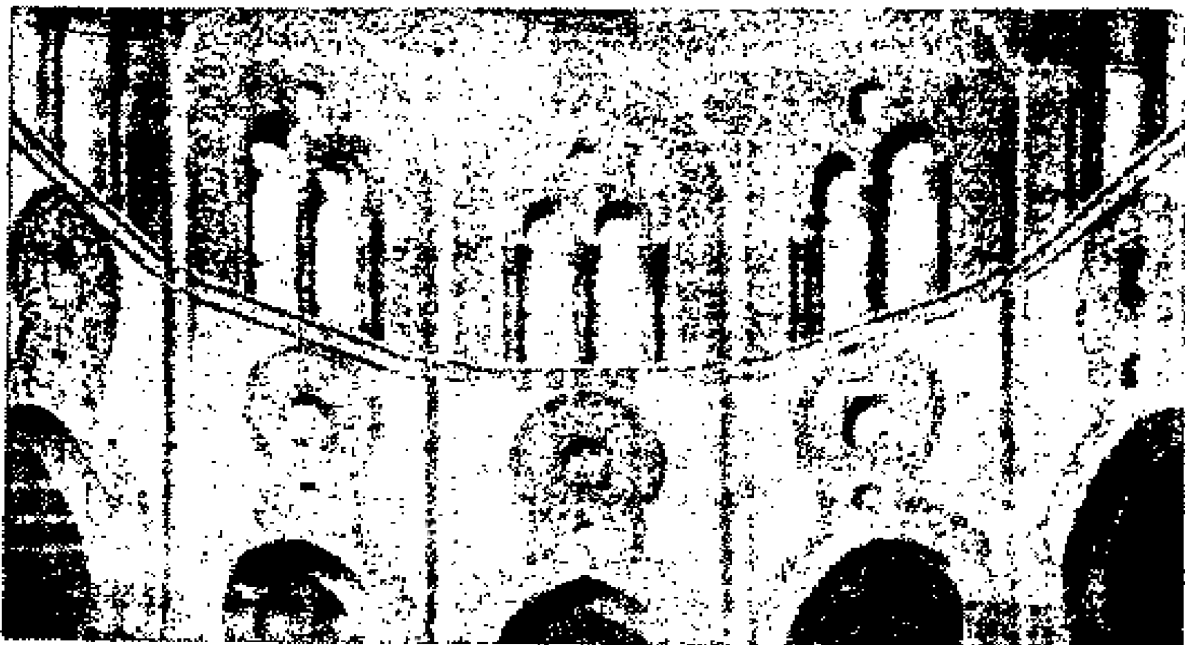
ينسب « بونفور بك » وفاة إبراهيم إلى إهمال عارض لا إلى انحراف فيه . فذات يوم زار حصون الاسكندرية بصحبة « جاليس بك » وعاد إلى القصر في قبض الظهر ينضح عرقا ، وجلس امام نافذة في مجرى الهواء يشرب الشامانيا . فتكا ذلك ما كان قد أصابه من داء الرئة حين سافر إلى القسطنطينية ولم يكن قد برا منه تمام البرء . وتفاقم الداء ثم اضطرتة صدمة برد جديدة في القاهرة إلى لزوم الفراش ، فرقد الرقدة التي لم ينهض بعدها . وقد توفي في القاهرة في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ (١٤ من ذي الحجة عام ١٢٦٤) وهو يتمتع بثناء اقاربه ، بين يدي وكيله مسيو « بونفور » ، دون أن يفكر في الموت ، بل قائلا انه لابد أن يبيع قطنه بثمن مرتفع .

* * *

رثاء محمد علي لإبراهيم

حين أنبىء محمد علي بوفاة إبراهيم قال انه كان يعتقد دائما ان ابنه سوف يسبقه إلى القبر وان حفيده عباس سوف يخلفه على عرش مصر .

■ ■ ■



عباس باشا

نشأته :

ولد عباس باشا في القاهرة عام ١٨١٣ . وكان الولد الوحيد لطوسون باشا الذي اختطفه موت مبكر من حنان أبيه محمد علي . وكان الوالي الشيخ يؤثر عباس في صباه بمحبة خاصة . فنشأ مدبلا وأهملت ثقافته بين يدي مربيه التركي وما لاحظته من عبود حريصين على إرضائه . وهكذا شب دون أن يلتفت إلى التجديدات التي أدخلها جده والتي كان يجد نحوها في نفسه شعورا من الازدراء لازمه طيلة حياته .

ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى . ذهب يقدم فروض التهئة لجده . فجلس على الديوان واضعا ساقا على ساق ، وهو وضع لم يكن أحد يجزؤ على اتخاذه في حضرة الباشا الشيخ . واستاء محمد علي ألا يراه يسعى إليه ليقبل يده في احترام ثم ينتظر حتى يأذن له بالجلوس . فسأله بأى حق أباح لنفسه تلك الحرية في الجلوس . فأجابه :

— بحق الرجل الذى يعرف شرف اجداده . الست باشا ابن باشا وحفيد باشا . بينما أنت لا اجداد لك من الأشراف ؟

فأمره محمد علي . وقد استاء لإجابته . أن يعود إلى جناحه ويلزمه إلى حين صدور أوامر أخرى . وفي اليوم التالي أرسله إلى معسكر « جهاد آباد » قرب الخانكة ليتلقى تربية وتعلما يناسبان آراء الوالى المجدد . والحق بمدرسى اللغة التركية والفارسية والرياضة كولونيل فرنسى لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية الحربية ومدرس للتاريخ .

ولقطع الصلة بحياته الماضية . أبعث عنه حاشيته . وعين مماليكه بالمدرسة الحربية . وألغى فريق الصيد الذى كان يخرج فيه . وترك له حصانان . ولكن بدل أن يسرجا على الطريقة الشرقية كالكرسى الوثير . أجبر على أن يمتطيهما فوق سرج الخيالة . وذات يوم . امتطى حصانه

الذى لم يكن قد اعتاد ذلك السرج ، فجمع الحصان وألقاه أرضا ، أمام كتيبة كانت تدق طبولها إيذانا بأن تؤدى له التحية العسكرية . فأمر - وقد أثارت غضبه تلك الحادثة - أن يوثق الحصان وأن يضرب بالعصا . وبعد عشرة أشهر من الجهود غير المجدية ، إذ رأى الباشا الشيخ نفور حفيده من الفن العسكرى ، أعاده إلى القاهرة لكي يدرس الإدارة . وظهر نفوره من نظم الفرنجة ومن زيهم فى كل مناسبة . وعندما أمر السلطان أن يرتدى جميع كبار موظفى الدولة الطربوش بلا عمامة « والفراك » « والبنتلون » والأحذية ، لم يرد قط أن يلبسها . وإزاء هذا الأذوار داعبه الدكتور كلوت بك قائلا له أنه لابد أن يتخذ ذلك الزى ، فشكاه إلى جده الذى أمر فى الحال بأن يقف الطبيب أياما ثمانية . وهو لم يلبس ذلك الزى إلا بعد ذلك بسنوات . ولمجرد الرحلة إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الولاية .

وسرعان ما عين محمد على عباس على رأس الإدارة الداخلية . حيث يصعب تصريف الأمور . وحيث أبدى فهما نادرا لحاجات البلاد ومصالحها الحقيقية .

كان يضيف إلى شدة عزمه قسطا كبيرا من التلطف والولاء وكرم السليقة ، وجودا أصيلا ورثه عن أبيه . وكان بسيط العوائد حفيا يعرف كيف يؤلف بين أهل البلاد على اختلافهم . لقد عمدت بعض الصحف ، وقد ضللها أشخاص سيئو النية من الأوربيين الذين خابت آمالهم الطامعة ، إلى إذاعة أن حكمه كان يعوزه الذكاء والنظام . ولكن هذه الوقائع تكذب ما رموه به :

فمنذ شبابه تدرب على الشئون الإدارية والحربية وحكم مصر بوصفه وكيلا لمحمد على . وفى عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ . حين أوشك وقوع الحرب بين الباب العالي ومصر ، وكان إذ ذاك محمد على فى « فايزوغلو » قرب خط الاستواء وإبراهيم باشا فى تخوم الممتلكات السورية . عين محمد على ، لإعداد معدات الحرب حفيده حاكما عاما على مصر وحاكما لشئون سوريا المدنية .

وفى تلك الفترة التاريخية العصبية أبدى فى الحكم من النضج وفهم الأمور ما استحق به إمارات الثناء من جده . ولكن طلب لأعدائه - ليثيروا ضد الراى العام - أن ينشروا عن كرهه للنظم الأوربية أقاصيص كاذبة

سياسته

عندما تولى عمه إبراهيم باشا الحكم ، اعتزل عباس الحياة العامة وانتهز الفرصة لاداء فريضة الحج . وحين توفي إبراهيم ، كان عباس الذى انت إليه الولاية - حسب رسم الوراثة العثمانى - ما يزال فى الحجاز . فتألف فى اليوم نفسه مجلس من اصحاب المناصب الكبرى فى الدولة لتصريف الامور إلى أن يصل عباس . ولقد ابلغوه نبأ توليته عن طريق القنصل الانجليزى الذى ارسل سفينة تجارية من السويس عاد على ظهرها الوالى الجديد إلى مصر بعد انقضاء بضعة ايام على وفاة إبراهيم . وكان فى استقباله عمه سعيد باشا الذى كان إذ ذاك فى القاهرة . يصحبه جميع اصحاب المناصب الكبرى . وتمت مراسم المنذاة بعباس باشا واليا على مصر فى قلعة صلاح الدين بحضور اهم اعضاء الاسرة وكبار الموظفين العسكريين وقناصل الدول .

وقوبلت توليته بأبتهاج من جميع الشعب . ولقد بادى فبدا حكمه باتخاذ بعض الإجراءات التى حققت جزئيا بعض ما كان الشعب قد رجا من أمل . رفع بعض المظالم الصارخة ، وكافا عن بعض الخدمات ، واحكم بعض ما كان قد اختلف من النظام . وفى ذلك ما يبرر الثقة العامة التى حازها فى اول ايامه . ومن بين تلك الأعمال يذكرون انه اعاد جماعة من الموظفين المفصولين من إدارات مختلفة دون معاش إلى وظائفهم .

بلغ عباس باشا السلطة فى اوائل عام ١٨٤٩ ، حين لم تكن لفرنسا اى سيادة فى الشرق . وكانت قد سقطت مكانتها فى مصر . وكان يدير فى نفسه افكار جده فى الاستقلال ، ولكن من ناحية إنشاء امبراطورية عربية وقد فاتح فى ذلك قنصل فرنسا العام مسيو « لموان » ، وسأله ما إذا كانت الحكومة الفرنسية تؤيده ان هو حاول التخلص من التبعية للسلطان واراد مسيو « لموان » ، قبل ان يرتبط بجواب ، ان يستطلع رأى الوزير الذى اجاب بالإيجاب . ولكن بعد فوات الاوان . فقد ضاق عباس بذلك الثانى ، فافضى بنفس المشروع إلى قنصل انجلترا العام مستر « موراي » الذى وعده فى الحال بالمعونة والحماية ، واصبح عباس صديقا للانجليز . راجيا ان يتخلص فيما بعد من نفوذهم وذلك بإثارة العصبية العربية . وريثما يرد على سعى انجلترا وعودها ، وجه نشاطا كبيرا واهتماما خاصا إلى إدخال جميع التحسينات الممكنة على

المواصلات والنقل بين القاهرة والسويس . وفي الوقت نفسه التمس
التيقن من تأييد النمسا بأن أرسل إلى فينا طبيبة الدكتور « برونريك »
الذى كان خليقا بأن يعقد له أواصر علاقة متينة .

لم يكن مطمعه الأوحده هو ضمان استقلاله وضمان عرش مصر لأولاده
من دون أمراء أسرته الآخرين . وإنما كان يداعب في الخفاء أمالا أعرض
ويحلم بتكوين امبراطورية عربية .

وقد تحدثوا عن غرامه بإحدى البدويات دون أن يقدروا سبب هذا
الزواج الغريب . وفي الواقع انه اقترن بابنة واحد من أقوى رؤساء قبائل
بلاد العرب قريبا بقضيته جميع عرب الحجاز الغزورين بهذه المصاهرة .
ولكى يحسن إخفاء علاقته ، أمر ببناء قصر له في صحراء السويس وآخر
في العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن أعين
الرقباء . وإن ينضج مشروعاته ويعد العدة لتنفيذها . ويعون قبائل شبه
الجزيرة . كان يمكنه أن يملأ أحكامه لا على مصر فحسب بل على بلاد
العرب . وإن يقطع فوق ذلك على جيوش السلطان البرية طريق سوريا .
بينما كانت تحصينات الاسكندرية تحميه من أى محاولة لهجوم بحرى
يشنه عليها الباب العالي . وبعد هذا كله ، كان يقدر انه فى حالة إخلال
مشروعه وأجد ملجا أمينا فى قبيلة زوجته الجديدة .

ولم يعرف الناس فى أوروبا شيئا عن هذا المشروع العريض .
ولم يعرفوا قط أمر علاقات الباشا بمسلمى الهند الذين كان فى استطاعتهم
إثارتهم ضد الانجليز كما حدث ذلك فيما بعد بوقت قصير . ولم يروا فى
هذا الاعتزال بالصحراء إلا بعض أهواء الوالى . ولما كان قد اغضب
كثيرين من الأوربيين بإصلاحاته ، لم يقتهم أن يتألوا منه فى الصحف .
ومن الحق أن أخلاقه - كاخلاق جميع الباشوات - مودة طيبة لنقد
الناقدين . ولكن مهما يكن من أمر ما يقال فيه ، فلقد كانت إدارته من
أخصب الإدارات .

بغضه للأوروبيين

تشهد إصلاحات عباس باشا وأقواله شهادة علنية باحتقاره للفرنجة .
وان جميع ما راه منذ طفولته ليبرر مسلكه . لقد كان يريد أن يعود إلى
التقاليد والأخلاق القديمة دون أن يهمل شيئا في سبيل ذلك . ولما أثار
غضبه ما كان يرى كل يوم من تغلغل العوائد الأوروبية ، نهى مماليكه
وجنوده عن تدخين السيجار والسجائر ، وإذ ضبط بعضهم متلبسين
بما نهى عنه أمر بأن تخاط أفواههم ، ثم أمر بعد أربع وعشرين ساعة
- حين رأى أن في ذلك عقابا كافيا - أن تقطع الخيوط التي حيكت بها
شفاههم . وقد روى لى هذه الواقعة القطة طبيبيه مسيو « ليو » ، ونشر
الذبا على ما أظن ، فى جريدة « التيمس » .

ولقد دفعته روح الاستقلال عن الباب العالي بقدر ما دفعه كرهه لزى
الفرنجة إلى استعادة الزى العربى ولكن فى جميع بهائه وبساطته
الطريفة . واقتدى به المماليك فارتدوا جلابيب حريرية مطرزة
و « كوفيات » موشاة بالذهب كان يرتفع ثمن عقابها إلى ٦٠٠ قرش . وعاد
الترف الشرقى إلى الظهور ، إذا لم يكن فى روعة أبهته ففى أناقته الذبيلة
الجميلة .

ولم يكن يحب استقبال القناصل ، فإذا اضطرتته المناسبات الكبرى إلى
أن يتجشم عناء زيارتهم ، دعاهم إلى مآدب عشاء طيبة على الطريقة
الأوربية لم يكن يظهر فيها . فقد كان يتعشى بمفرده دائما . كان يتوارى
ليتناول وجباته ويأكل على هواه ، أى كما يأكل الشره إلى حد ما .

عباس باشا والحيوانات

وتحدثوا كثيرا عن حبه للحيوانات . ولقد كان يقتنى بالفعل أحسن
الجياد وأحسن الجمال فى مصر والحجاز . وبلغ من حرصه عليها أنه
لم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره . لم يكن عباس يمنع دخول داره
بالعباسية ، كما يزعم « شارل ديدييه » ، ولكنه كان من هواة الجياد فكان
يخشى عليها شر العين الحسود ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأتراك ،
ولذا أصدر أوامره لحرسه بالقبض على كل من يقترب من الحظائر .
وكان لعباس برج حمام تعممه أجمل وأندر الحمامات التى كان يستجلبها

من جميع البلاد . وكانت لديه أيضا عدة أجناس من الكلاب ، و عدة انواع من الخراف والكلابش ، وكان يحيط تلك الحظائر التي يعيش في وسطها بعناية مترفة نزقة هي بعض صفات الأمراء الشرقيين ، فكانت حمائمها تحمل جلاجل من فضة ، وكانت كلابه تحمل أطواقا ياذخة ، وكانت كباشه مصبوغة بالحناء مذهبة القرون . بيد انه لا ينبغي أن تصدق ما يزعمه بهذا الصدد « ماكسيم دوكان » الذي يسيطر عليه خياله الخصب . ولا يعرف من مصر إلا مظهر الأحجار التي صورها بآله .

* * *

أخلاقه

أما أخلاق عباس ، فكانت كأخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الخلمان أكثر مما تدلل الجوارى . لقد كان عباس يستسلم لمجنونه في الخفاء ، مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ، ولكن كرامته كانت تأتي عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد أو فلاح . وكان قاسيا محبا للانتقام . رفض يوما طبيبه الدكتور « جاندى » أن يعطيه كمية من السم فكسر الخزانة واستولى على القارورة ، وسمم بها أحد مماليكه . ورفع الطبيب استقالته إلى الباشا الكبير ، وقبض مؤخر مرتبه . ولكي ينمى المبلغ الصغير الذى ادخره قام برحلة إلى سنار . وعندما علم عباس بسفره دبر اغتياله عند أول بثر في صحراء البليوضة . وكتب بعضهم أن عباس باشا قد تزوج راقصة شهيرة من راقصات القاهرة تدعى « صفية » وهذا خطأ فى ذكر الواقعة . لم يفعل عباس ، وقد خليه جمالها ، إلا أن اتخذها خليله له بعض الوقت ، ثم سرعان ما نسيها .. إلى أن عاد فتذكرها حين علم من قبيل المصادفة أن أحد الضباط فى حيازته « فرجيلة » فأخذه كان الوالى قد أهداها إلى عشيقته إذ ذاك ، فإذا به دون أن يتحرى كيف انتقل هذا الخليون إلى أيد أخرى ، يأمر بالقبض على المرأة التعسة وإلقائها فى النيل . ولم تنج « صفية » من الموت إلا حين باحت بفقرها الذى اضطرها إلى بيع جزء من متاعها . على أن ذلك لم يمنع من ضربها بالعصا وإعادتها إلى أسنا بين البغايا اللواتى عرفهم كثير من الأوربيين .

ولم يكن عباس باشا يجد راحته فى جو المدن . كان يتطلب هواء

الصبراء الطلق النقى ، وتشهد بذلك قصوره فى بنائها والعباسية والدار البيضاء .

وكان القصر الذى ابتناه فى وسط السهل المجذب ، الذى يبدأ عند آخر مقابر السلاطين المماليك ويمتد بين الاراضى المزروعة وسلسلة المقطم قصرا اشد عزلة وكابة من مخيم للبدو . فهكذا كان يعسكر مع موظفيه فى قصر باشا ، تحميه بعض قطع المدافع وفرق الجيش المرابطة بجواره ، بعيدا عن مطالب القناصل ، بعيدا عن توصلات الاوربيين ودسائسهم ، وعلى استعداد للنزوح فى ادى لحظات السامة .

وكان عباس منخفض الجبهة ، عريض الفكين ، له ذوق الاطفال ونزق المجنون ، وكان ورعا ، متطيرا ، تكسوه التمائم والتعاويد من كل نوع .. ولكنها لم تستطع ان تحميه من ميتة فاجعة .

نهاية عباس

وحانت نهاية عباس عندما اكتشفت الخطة التى كان يبيتها للتخلص من سلالة محمد على لى يضمن وراثة عرش مصر لابنه من بعده . كان الامر امر انقلاب يودى بحياة خمسين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل ، وهو احتفال عظيم يجتذب جمهورا غفيرا . واعطيت قائمة باسماء الضحايا لخورشيد باشا . وفى ذلك اليوم ، على اثر تسليم مقود المحمل لأمير الحج ، كان مقدرا ان يتشاجر اثنان من رؤساء « الباليبيوزوك » ، وان ينتضيا سيفيهما ، وان يشترك فى الشجار رجالهما الموزعون بمهارة . وفى هذه الملحمة كان مقدرا ان يقتل عدة باشوات وبكوات وحاشياتهم . وكان مقدرا فى الوقت نفسه ان يتصنع عدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا فى وقت واحد دار حليم باشا ، عم الوالى ، وقصر مصطفى أحمد باشا وإسماعيل باشا ، ابنى عمومته ، كانتهم لاجئون يلتمسون الماوى ويقتلون جميع من هناك . هكذا فيما يقال ، كان عباس يريد ان يتخلص من مزاحميه ويمهد طريق العرش لابنه « الهامى » .

على ان القول بذلك يتبغى ان يؤيده الزمن اولا وان يؤمن عليه قوم تزيهون قبل ان يسجل فى التاريخ . لاننا اذا صدقنا كل ما اشيع فى القاهرة ، رايانا ان الجميع كانوا يحيكون الدسائس- إذ ذاك . فقد كان سعيد

باشا على الرغم من همود عزيمة يدرب على حمل السلاح بعض الجنود والبحارة . ولم تثر هذه الاستعدادات الحربية قلق عباس ولكنها أثارت حفيظته . ولم يكن بد لسعيد من الالتجاء إلى السم وقلية لحياته وضمانا للعرش . وهذه الرواية أشد شيها بالحقيقة .

وكان عباس ذا بنية ضعيفة القلب ، ولكن وفاته لم تكن نتيجة سكتة قلبية كما قيل . فقد وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل الذى كلف بغسل جثته قبيل دفنه . وكان قد دخن فى الليلة البارحة « جوزة » محشوة بالنشيرا (وهى مستحضر من الحشيش) ثم نام نوما عميقا . فانتهز القتل تلك الفرصة . وعلى الرغم من ارتكاب القتل فى قصر بنها الذى كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس ، لم يعترض احد سبيل القتل فى قرارهم .

لقد أسرجوا جيادا وهربوا عابرين ثلاثة مراكز من الحرس يلتمسون ماوى لهم . من حيث انطلقوا بعد ذلك دون أن يفكر احد فى اعتقالهم . ويقول أكثر الآراء انتشارا أن ميتة عباس كانت بأيدى مملوكين اكتراهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون أن مصرعه كان بأيدى أخوين أراد هذا المستبد الفاجر أن يجبرهما على ارتكاب الفعل الداعر الذى تروى الأساطير أن « المشتري » صنعه « بجانوميد » ، فرفض ، فهددهما بشر العقاب لما يبديان من عصيان ، فخشيا أن يحقق بهما مصير عبد كان قد خصى فى الليلة السابقة ، وانتهزا فى نفس الليلة فرصة سكر الباشا وخنقاه .

ولكن وقائع كثيرة تشهد ضد خليفته . فقد منع سعيد باشا القيام بتشريح الجثة ، ودفع الطبيب « ديامنتى » و « مارتينى » إلى توقيع شهادة بأن عباس قد مات بالسكتة القلبية . ولم يسع إلى تعقب القتل . واقبلت أم عباس باشا على سعيد باشا باكية تسأله أن يثار لولدها ولكنها لم تستطع أن تنال شيئا . وألقى القبض على رجل برىء لمجرد الشكليات .

وقد أراد إلهامى باشا ، ابن عباس ، أن يستجوب المماليك ، فلم يؤذن له . وبعد ذلك لم يتحدث احد عن القتل الذين لجأوا - فيما يقال - إلى القسطنطينية ، حيث دبر ابن عباس ، الذى يقيم اليوم هناك وقد تزوج إحدى بنات السلطان - أمر بقتلهم فى أحد المواخير

ان كل ما اشيع عن موت عباس غير صحيح - قال لى ذلك طبيبه الدكتور « ديامنتى » - فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ومات فجأة نتيجة لازمة دموية . وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابه بعض اقوال مختلطة لم يفهما قط ، وعندما رايا سيدهما قد فارق الحياة هربا فى الحال إلى القاهرة خشية أن يتهما بقتله . وفى الصباح . إذ لم يخرج احد من تلك الغرفة ، تقدم بعض رجال القصر فوجدوا عباس متصلب الجسد مثلوجا . فاستدعوا طبيبه الذى أكد انه مات بالسكتة القلبية منذ ست او سبع ساعات . ولما كانوا يظنون انه مات مسموما ، ولم يستطع الطبيب ارتجالا أن يجيب بالنفى فقد اذنوا له بفحص الجثة ، ولم يكن عليها أى أثر للعنف كما لم يكن على الفراش أو فى المكان المحيط به ما يدل على ذلك .

وكان هذا الموت فى بنها يوم ١٤ يولية عام ١٨٥٤ (٩ من شوال عام ١٢٧٠) وأراد احفلياء الباشا - وعلى رأسهم سكرتيره وخازن داره - أن يكتفوا أمر موته ، فوضعوا الجثة فى عربة لنقلها إلى العباسية ، واتخذوا جميع الإجراءات اللازمة لحفظ النظم باسمه ، ثم احتبسوا انفسهم فى القلعة . اياما ثلاثة قبل أن يصرحوا بفتح الابواب .

* * *

عهد عباس

ودخل سعيد باشا القاهرة فى ١٧ يولية . وكانت قد اضيئت الأنوار فى قصر شبرا حيث اجتمع الكبراء لاستقبال سموه . وكانت البهجة عامة : فالعبيد يأملون دائما آمالا كبيرا من تغير السادة . وكان الشبىء الوحيد الذى يشفع لسعيد باشا هو حبه رفقة الأوربيين وأنه تربي تربيتهم . وبعد أن انقضى شهران على تولى سعيد ، اسف الكبار والصفار على موت سلفه . ذلك أن عباس كان إداريا صالحا ، جرى على يديه المال وجرت الحياة فى مصر من اقصاها إلى اقصاها . ولم يمدحه الأوربيون لأنه لم يفدق عليهم أسباب الغنى ، ولكنه بوجه عام دفع اجر من أدى له بعض الخدمات .

فلقد وجد - وكان فى ذلك على حق - أن الفرنجة قد خدعوا جده فى أكثر الأحيان فكان عليه أن يحذرهم . ولم يكن يمنح ثقته باستخفاف . بل طرد

من الخدمة عدة أوربيين أرادوا - وقد ازدهت معارفهم - التدخل في شئون الحكومة أو ازجاء النصيح له دون أن يسألهم نصحا . وقد فاجأ الموت وهو يفكر في مشروعات كبيرة : هب أنه لم يكن يتأمر للقضاء على جميع أعضاء أسرته الخليقين بأن يطالبوا بالولاية على مصر ، فقد كان يفكر في أن يضمن العرش لولده ، الذي كان قد أرسله منذ وقت قصير إلى أوربا لكي يعقد فيها أوامر علاقات دولية بقدر ما يتوقف في شئون الحكم .



المرآة
تعق أدريس في الحياة المصرية
حتى الحياة في الصمد وصفها وصفها

سعيد باشا

الابتهاج بقوليته

قال احد المصريين سنة ١٨٥٨ عن الأنوار التي
اوقدت بمناسبة توليته : « ان الزيت الذي اوقدناه
احتفالا بجلوسه تدفع ثمنه دموعا منذ اربع
سنوات » .

وفي الواقع ما خيب عهد آمالا انعقدت عليه خيبة
أمر من ملك سعيد ، وما كلفت مصر اسوا حكما
ولا اباس حالا منها في أيام هذا الأمير الذي رياه اوروبيون لم يحسنوا
إلا تعلق نزواته ، والاغضاء عن رذائله بل تشجيعها .

* * *

تربيته وصفاته

فيما عدا اللغة الفرنسية التي يتكلمها بطلاقة ، لم يأخذ سعيد شيئا عن
الاستاذين « كونيغ » و « هوزار » . ولكن الاستاذ « كونيغ » عرف كيف
يغتنى . اما الاستاذ « هوزار » فقد مات قبل تولي سعيد . ووعده سعيد
ازمته بمعاش تتقاضاه مدى حياتها غير انه لم يصرف لها ابدا .
ولما حضر ابن الاستاذ « هوزار » إلى مصر عام ١٨٥٨ ، اكتفى صاحب
السمو بإهدائه سيفا بوساطة مسيو « ساباتييه » .

ولم يأخذ سعيد أيضا من عشرته للأوربيين دروسا في سلامة الذوق .
فان القصر الذي ابتناه في « المكس » وكلف بتشبيده مهندس مسيو
« مونتو » قصر من طراز « الروكوكو » قد انتشرت في عمارته كالثبوك
نحوت منقولة طبق الأصل عن « الانفاليد » مذهبة شديدة السرف في
الطلاء بالذهب .

ولم يتعلم منهم سعيد باشا اللباقة والادب . فانه غليظ اللغة والعادات
لا يرعى حدا ولا اعتبارا . وكثيرا ما يلقي عبارات قذرة في حديثه . ذات
يوم كان جوابه لكوت بك الذي اقبل يحمل إليه تحيات من طرف الاميرة
ماتيلد :

— وماذا تعمل هذه البغي ؟ (باللغة الفرنسية) .

ورغم انه وقع مع الجميع ، فإنه لا يبيع لأحد أن يخاطبه بنفس
اللهجة .

وانك لتتقدم حين تحصل على الإذن بالدخول إلى سموه ، وتنتظر أن
يتفضل السيد بالالتفات إليك أو أن يوميء لك بالتحية ، ولكنه إذا كان
لا يريد أن يفتن إلى وجودك ، أدار لك الجميع ظهورهم وانصرفوا عنه :
فانت إذن من المغضوب عليهم .

وليس لسعيد باشا من اللياقة وحسن التصرف ما يلزم لمن يكون في
مركزه ، فكثيرا ما يسيء استقبال شخصيات كان ينبغي أن يظهر نحوها
قسرا من الاعتبار أو أن يتكلم عنها في تحفظ .

وسعيد خفيف العقل قليل التبصر ، يتحدث عن شئونه أمام الاجنبي
كأنه يتحدث إلى أمين سره . وهو فوق ذلك شديد النزق ، ومن كان حظيا
لديه يوما لا يظل في حفلوته تلك أمدا طويلا .

وعلى الرغم من ثقفه بالعلوم والفنون الأوربية ، وهو امتياز لم يتيسر
لأحد من أسلافه ، فقد أهمل جميع المؤسسات التي أنشأها محمد علي
وإبراهيم باشا ، وتركها تختنق . لقد نقلت أخيرا جميع أدوات المرصد إلى
أحد مخازن الذخيرة ببولاق ، وأحيل الفلكي العربي إلى هيئة المهندسين .
وأصبحت ورشة تصليح أدوات علوم الرياضة ورشة لصنع القذائف
الفارغة . وكل شيء في سبيله إلى التلاشي جزءا بعد جزء .

وظيفة جديدة للجيش ؟

وحل محل الجيش الباسل الذي أرغم السلطان على التسليم جيش من
الماجنين يتعذر أن يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة أولا . وإلى
جانب جنود يلبسون الاسمال ، يرى المرء كتبية فاخرة من الغلمان تمثل
دور الجندي أثناء النهار ، وتؤدي أدنى أدوار الفجور أثناء الليل .
ويزعم متملقون أنه لحل التجنيد النظامي محل الضغط ، غير أن جيشه
منتخب قبل كل شيء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة . ولم يشق من شق
من شيوخ القرى نتيجة لرفضهم تسليم أبنائهم للجندية ، بل لأنهم أرادوا
إتقاد أبنائهم من مجون الوالي الذي يجند الجنود ليملأ بالغلمان
حريمه له .

الضبط والربط

وفي الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ عندما كان سعيد باشا في منفلوط ، وجد اثنين من الجنود انهما بجوار قريتهما فذهبا إليها لرؤية اهلها وانفقا الليلة معهم . فلما عادا في الصباح القى القبض عليهما . وامر سعيد باشا ، دون ان يحيلهما إلى مجلس عسكري ، بأن يرميا بالرصاص . فصوب الجنود الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم المستهتر بندقياتهم بحيث يتفادون قتل زميلهم . واحتد غضب الباشا فامر بربط كل منهما إلى فوهة مدفع وإطلاقه . وحكم على الجنود المتسامحين بالأشغال الشاقة

* * *

الشعره

وسعيد باشا يحب الفواكه ويكلف بها ، ويرد إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من أوروبا . ويقولون انه ينفق ما ينيف على ١٢ ألف فرنك لإرضاء نهمه . وعند فتح صندوق من صناديق الفاكهة ، تراه أحيانا ينقض على الثمار في شره المتهوم يلتهم واحدة بيمينه ويسك أخرى قد انتقاها بيساره ويشتهي الباقي بعينه .

وهناك واقعة تشهد أكثر من سواها بسفاهة الباشا ، وهي الأمر الذي أصدره إلى مدير مستشفى قصر العيني بعدم فرض طعام المرضى القليل على أي جندي . فالجنود أحرار في تناول جميع ما يريدون وبالقدر الذي يريدون . وممنوع على الأطباء أن يصفوا لهم ضمن علاجهم الحمية من الطعام وتناول نصف وجبة أو ثلاثة أرباع وجبة . وبلغ من شدة عطف سموه على جنوده الذين يشاطرونه لذاته وأعماله ويدفعون عنه ما يحدق به من خطر أن عين لهم طاهيا خاصا ومائدة خاصة في المستشفى .

اهتمامه بمصالح مصر !

واهتمامه بمصالح التجارة الكذوبة من إكاذيب « دى ليسبس » وشركاه . ذات يوم شكوا بعضهم إلى سعيد باشا من قلة انتظام السكة الحديدية التي لم تعد تسير قطرها إلا لحاجات سموه الخاصة ، فاجابهم : — انفى شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية . ولكن هذه السكة الحديدية ملكي ، ولي أن افعل بها ما اشاء .

ولا يشغل بال سعيد أن يخلف وراءه اسماً شريفاً وسعادة للشعب الذى عهدت به الأيام إليه ، وإنما التكديس والاستمتاع هما شغله الشاغل .
قال لسليمان باشا :

إن تصائحك طيبة جداً ، ولكنى قبل كل شيء أريد أن الهو ولا يعنينى مابقى بعد ذلك . وليكن من بعدى الطوفان .
وقد حرم جمهوراً من المستخدمين الشيوخ معاشهم ، منكر ما أدوا من خدمات .

مصرع أحمد باشا :

حادثة كوبرى كفر الزيات

أن موت أحمد باشا ابن إبراهيم - ولى العهد - يثير شبهات كثيرة حول سعيد . كان أحمد يفعل خيراً جما . كان جواداً يهب هبات عريضة وهو يدير أملاكه فى اقتصاد . ومات مأسوفاً عليه لأن ملكه كان يعد مصر بمصير أسعد مما استطاع أسلافه أن يؤدوا لها . فليس من بين سلالة محمد على أو إبراهيم من يعد مصر بحكومة أبوية صالحة الحذب .

ولم يجد سعيد باشا أسفاً على موت أحمد باشا ، بل كان مما قال : « أن اليتامى الذين كان يعولهم سوف يكونه » . وغضب على أدهم باشا الذى تحسر لفقد أحمد .

وتحوى إحدى الصحف الصادرة فى مالطة فى ١٨ يونية - على ما أذكر - مقالا أثبتت فيه أن موت أحمد باشا كان قد أمر به سعيد . وأقر لى مهندس انجليزى أنه قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام ، صدر الأمر بالحفر حفراً عميقاً عند أسفل أعمدة القنطرة دون أن تستدعى ذلك حاجة ظاهرة . فقد كان هناك من الماء ما يحمل أشد السفن . ولولا العمل الذى حفره ابتلعت عربات القطار ، لجاوزت العربى الثالثة - التى كانت تقل أحمد باشا - مستوى الماء ولنجا وارث العرش .

وقبل وقوع الحادث ببضعة أشهر - ومن المحتمل أن يكون ذلك فى الوقت الذى اختتمت فيه فكرة هذه المؤامرة الرائعة - سرح سعيد باشا « جريم بك » مدير السكة الحديدية الانجليزى ، وأحل محله « نوبار بك » وهو فتى أرمنى ، وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده .

شقاء مصر

ان شقاء مصر الأكبر مصدره نظام وراثة عرشها الذى وضعه السلطان .
بان ولاية مصر الذين خلفوا محمد على كانوا يعلمون ان ايناءهم لن يرثوا
الحكم ، فاهتموا بترائهم اكثر مما اهتموا برفاهية مصر . انهم يفكرون فى
ملء خزائن اولادهم . او فى ان يضمنوا لهم العرش . ولا يفكرون قط فى
إسعاد المصريين .

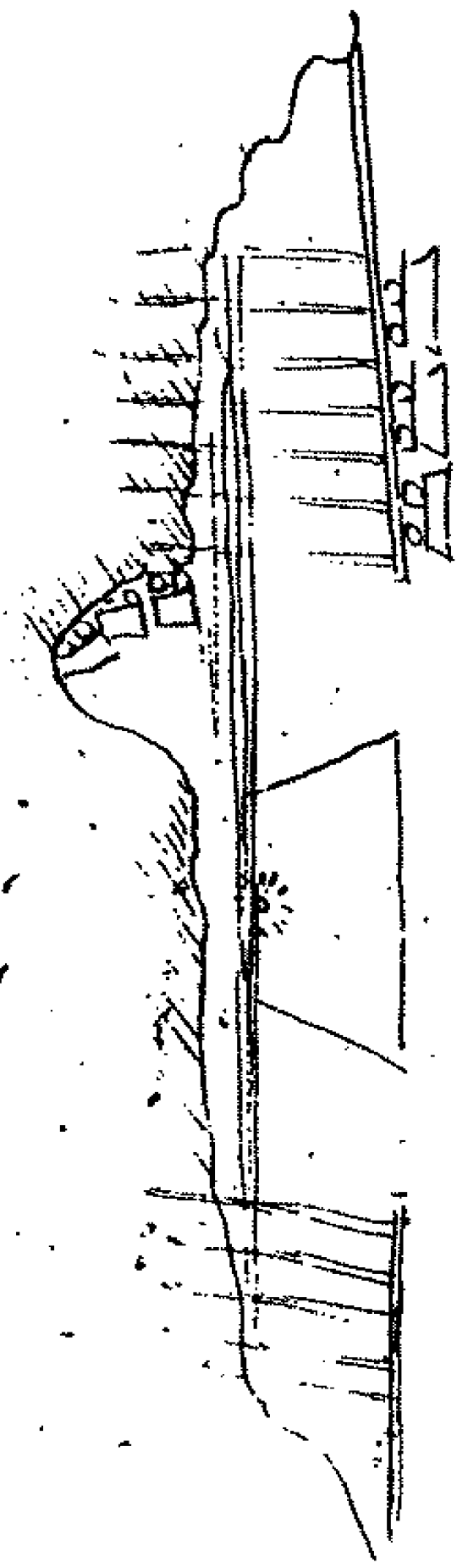
وإدارة سعيد باشا اسوا من إدارة عباس . تبلغ ديون الوالى الحالى
اكثر من ٦٠ مليون ريال (٣٠ مليون من الفرنكات) . وهو مدين بمثل هذا
المبلغ للجيش الذى لم تدفع له مرتبات منذ وقت طويل . ويمثله ايضا
لتجار مختلفين . وبلات شركة الملاحة للبحر الاحمر عاجزة عن القيام
بعمل اى شىء لان الوالى لا يمدّها بالمال اللازم . لقد انفق اثناء السنوات
الاربعة التى قضاها على العرش اكثر من ٤٠٠ مليون . ويدين بحوالى
٨٠ مليوناً . ولم تدفع للموظفين مرتباتهم منذ عشرة اشهر . وهناك تفكير
فى ان يخصم منهم مرتب ثلاثة اشهر كما حاق بهم من قبل .

١٥ يولية ١٨٥٨

مر سعيد باشا امس فى « السكة الحديدية » دون ان يلتفت إليه اى
عربى ادنى التقات . فإلى ذلك الحد اصبح هذا الرجل محققاً . ولم يحيه
إلا بعض الأوربيين . وعندما وصل إلى القلعة ، قذف جمهور من العرب
عرائض فى عربته . فالتقاها خارج العربة قائلًا لهم انه لن يصرف لهم
مرتبات قبل شهر « توت » .

واباح اخيرا أحد القناصل لنفسه ان يبدى بعض الملاحظات للباشا
بشأن مرتبات الموظفين المتأخرة ، فأجاب :
— انك تدهشنى . لقد دان أبى بمرتبات اربعين شهرا للمستخدمين دون
ان يجزئ احد على ان يبدى له ملاحظة . وانا ايضا ارى ان احكم كما
يطلب لى .

■ ■ ■



52519 The N. A. G. Fr. M. S. S.

Ques mais a
 freubadtemwa-
 de a. b. e. a. c. a.
 a. a. m. m. m. m.
 in a. a.

حاشية كوبري كفر الزيات
 (رسم تخطيطي لإدريس القدي)

ولقد قدر مبلغ ما ينفقه سعيد في نزواته الجنونية المتنوعة فكان في اليوم الواحد أكثر من دخل مصر في اليوم الواحد .

كذب المنجمون ..

كتب المدعو « شيا أفندي » الموظف بنظارة الحربية أنه قرأ طالع سعيد باشا فأظهر أن وفاته ستحين سنة ١٢٧٥ هجرية التي بدأت في ٩ أغسطس سنة ١٨٥٥ . وقد صودرت هذه الرسالة ، وصدر الأمر بنفى « شيا » إلى فازوغلى ، أى بإلقائه فى النيل أثناء الرحلة . وفى الوقت نفسه صدر الأمر باعتقال جميع السحرة والمنجمين وضاربى الرمل . ومن ضمن هؤلاء التعساء الذين بلغ عددهم ثمانين شخصا ، كان الشيخ « على الليثى » وهو عالم كان يشتغل بعلم التنجيم كغيره من العلماء ، إلا أنه كان خدينا أحمد باشا ، ومن المحتمل أن يغرقوه كما أغرقوا سيده .

موظف كبير !

ان الطريقة التى بها يجعلون موظفا يقفز من منصب إلى آخر جديدة بالملاحظة .

عابدين باشا موظف فى سك النقود كان قد بلغ مرتبة البكباشى وهو فى السابعة عشرة من عمره . وأصبح سكرتيرا خاصا لعباس باشا ، ثم غصب عليه الوالى فنقل رئيسا لجوقة موسيقى « المغرورة » أى فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لإقليم الجيزة ، وكثيرا ما رآه الناس يفر من مكتبه مصطحبا حبابه ، إلى حيث يلهو على شاطئ النهر .

تبذير .. وتقتير

اصطحب سعيد باشا فى رحلته إلى « طيبة » للاحتفال بعيد ميلاده ٢٧ سفينة بخارية ، كانت آخرها تحمل مسرحا للتمثيل .

وتدر مصر حوالى ٢٥ مليون ريال (١٢٥ مليون فرنك) على الباشا الذى يحكمها ولا يفعل شيئا فى سبيل خيرها فى الحاضر ولا فى المستقبل . ولا يسعى سعيد إلا لتكديس المال ثم تبذيره مع « براقى » و « باستريه » و « دى ليسيس » ويقال أنه أودع أخيرا مائة ألف جنيه فى أوربا (٢٥٠٠,٠٠٠ فرنك) .

وهو لا يتردد في استخدام أى وسيلة من شأنها أن تزيد ثروته . أمر منذ عام ونصف العام تقريبا بإنشاء سجل جديد لمصر ، فقد طلب أن يرى المقياس الزراعى المعروف « القصبة » ، ونظر فيها فبدأ له أنها أطول مما ينبغي ، وكسر من أحد طرفيها قطعة تبلغ نحو عشرة أصابع قائلا : — منذ الآن ، يكون هذا طول القصبة .

وبهذه القصبة قيدت الأملاك في مصر . وقد زاد هذا المقياس الزائف دخله بنسبة العشر .

وأنا أقدر هذه النسبة على أساس من الواقعة التالية :
كان مسيو « دروفتى » (قنصل فرنسا) قد نال من محمد على إبعديّة مساحتها ٣٠٠ فدان في الفيوم . فلما جاء ابن القنصل سنة ١٨٥٨ يطلب بالامتياز الممنوح لوالده ، وجد أن الأرض التى كانت محددة المساحة فيما مضى تحوى ٢٣٠ فدانا حاليا .

جباية ضريبة

أراد سعيد باشا في أول عهده أن يجبر بعض قبائل الصعيد على أن يدفعوا « الميرى » عن الأراضي التى يزرعونها ، وكان محمد على قد اعفاهم من هذه الضريبة لقاء خدمات أدوها له أثناء حرب الشام . فلما رفضوا ، سير إليهم سعيد باشا فرقا من الجيش هزمتهم . فأذعن الشيوخ على شرط أن يؤمنهم على حياتهم ، غير أن سعيد لم يرغب فى التصديق على هذا التعهد ، وأمر بإعدامهم . ورفض الباشا المكلف بقيادة تلك الحملة تنفيذ الأمر ، فعزله ، وأمر بربط عدد من رؤساء تلك القبائل إلى فوهات المدافع وإطلاقها ، ثم أرسل الآخرين إلى الأشغال الشاقة بالاسكندرية حيث عومل هؤلاء التعساء أقسى معاملة . وبعد انقضاء بضعة أشهر ، قتل الباشا طبيبه « لاوتنير بك » أن أولئك المساكين قد أشرفوا على الهلاك ، فأجابه الباشا :

— وهل تظن اننى أحضرتهم إلى هنا للإبقاء على حياتهم ؟
وهذا العمل الذى افتتح به سعيد عهده قد بدد الأموال التى عقدها أصحاب النية الحسنة والقلوب الطيبة على أمير رباه الأوربيون . والآن لا يسبح إلا مسيو « دى ليسبس » وفرقته بحمد الباشا الذى يملأ بالمال خزائنها .

المجون الرسمي

لقد جرى سعيد على أن يستخدم أوسمته استخداما غريبا لا ينبغي أن
تصمت عن إذاعته لكي يعتبر بذلك الملوك الأوروبيون الذين يقذفون إلى
درك الحارب هذه الشارات المشرفة إذ هم يمنحونها لأمثال هؤلاء الداعرين .
ففي ليالي المجون الكبرى يخلع ثيابه ويظل عاريا كجميع غلمانته . فيقلد
أحدهم وشاح « جوقه الشرف » والآخر رباط سان موريس أو « سان لازار »
أو شاح « البرج والسيف » البرتغالي ، ويلهو بأن ينتهك صاحب الجلالة
الامبراطورية أو جلالته ملك هذا البلد أو ذاك . ولما كان يقوم طورا بالدور
الإيجابي وطورا بالدور السلبي ، فليس يحق لأحد أن يستاء .

* * *

ولا يتخذ سعيد حرسه إلا من فتيان تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٦
سنة . وفي الصباح ، يرى المرء نحو ستة من حرس الباشا خارجين من
جناحه . وقد أنهكتهم ليلة من المجون أكثر مما ينهكهم نهار من التدريب
العسكري .

ويعطى سموه خواتم من العسل وساعات ذهبية لأولئك الذين
يخضعون لفزواته . وذات يوم أراد أحد هؤلاء الجنود أن يبيع جوهرة
هادى ذلك إلى اعتقاله على إثر اشتباه الصائغ الأوربي فيه وظن أن الفتى
قد سرقها . فصرح الجندي بأن الباشا هو الذي منحه ذلك الخاتم . ورفعوا
الأمر إلى الباشا ، فقال :

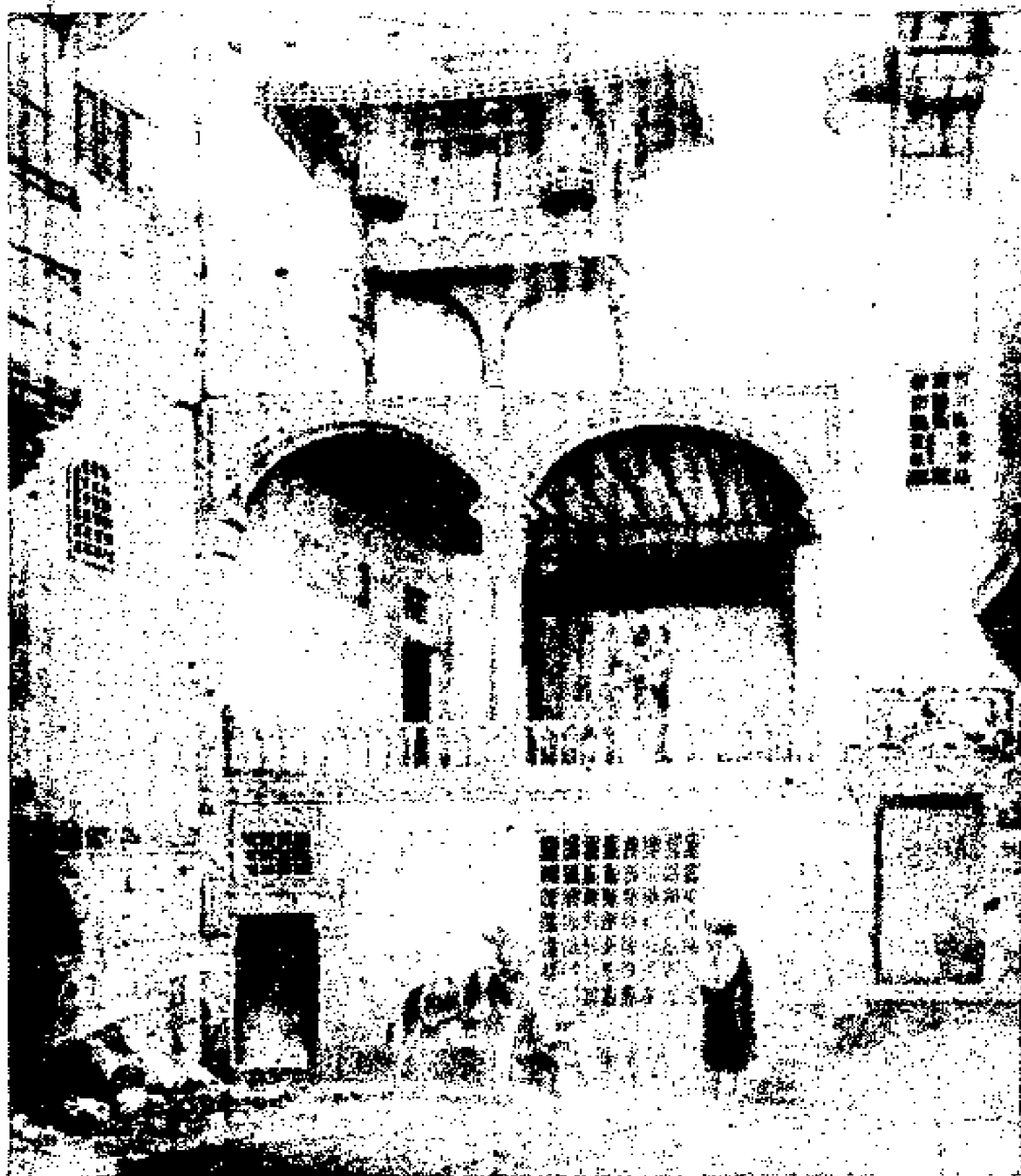
— الست حرا في أن أعطي الهبات لمن أشاء ؟

مبادئ الحكم !

لقد أمر سموه أخيرا بدفع مرتب موظفيه عن ستة أشهر ، بينما هو مدين
لهم بمرتباتهم عن اثني عشر شهرا (١٠ ديسمبر ١٨٥٨) .
وهذا هو التعليل العجيب الذي ذكره سموه لواحد من الأوروبيين كان
يحدثه عن رؤس الموظفين :

— إن في الاستبداد ضمان القوانين وحياتها . فلو أنني كنت أدفع
للجيش وللموظفين مرتباتهم بانتظام كما هو الحال لدى الأفرنج إذن
لطرودوني من البلاد عندما تحين أول لحظة تضطرنني فيها الظروف إلى
تأجيل الدفع . فالأفضل هو التصرف كما نفعل . وهكذا لن يجزؤ موظف

على أن يترك مركزه ، ونحظى بالرضا الشعبي بعض الوقت كلما أمرنا
بصرف المتأخر من مرتبات الموظفين على غير ما يتوقعون . أما إذا كانت
هناك ميزانية فلن نستطيع أن نتصرف كما نشاء في المال العمومي ،
ولا أن نؤلف بخدمات الرجال الذين نحتاج إلى طاعتهم ولا يستحقون أن
نخضعهم بالعنف .



منظر داخلي في بيت مصري
خلال القرن التاسع عشر بريشة إدريس أفندي

إسماعيل باشا

مما يجدر بالملاحظة أنه من بين جميع أبناء الباشوات الذين تربوا في أوروبا لم تظهر مصر بمواطن واحد ممتاز . فلقد انهكوا أجسامهم جميعا في المجون ، وأخذوا جميع عيوبنا دون أن يكتسبوا واحدة من صفاتنا أو فضائلنا .

لا يصلح أبناء شريف باشا إلا للتكبر عليك والجرى وراء البنات .

وقد أعطى إسماعيل باشا ابن إبراهيم للدكتور « بروجيير » كتاب « وصف مصر » قائلا له :

— أرحنى من هذا الكلام الفارغ .

إسماعيل باشا محب للانتفاع إلى حد كبير . إن هباته الكريمة ناتجة عن غروره ، ولكنه لحز شحيح . فهو يتذكر أدنى نفقته . قال يوما :

— كلغنى غدائى مع نوبار فى القهوة الانجليزية التى قصدناها مفتكرين ١٣٧ فرنكا و ٥٠ سنتيما .

عندما سافر الوالى إلى فيشى فى أغسطس عام ١٨٦٧ ، جمعت الجياد التى كانت تجر مركبته فى بعض الطريق . وكان فى صحبته « نوبار » و « شارل ادمون » فرجياى الابرئاع والا يخشى شيئا ، ولكن خوفه دفعه إلى أن يقذف نفسه خارج العربة فسقط فى الوحل . وقبل أن ينزل نوبار ليعينه على النهوض قال لصاحبه :

— ها هو ذا فى معدنه .

وعلى أثر عودة الباشا إلى مصر ، وقد صده أصحاب الاموال الذين حاول الاستدائه منهم ، خفض مرتبات موظفيه . وكان نوبار ضمن من شملهم هذا الإجراء ، فاستاء وعزم على ترك الخدمة . ولكنه مضى هاستشار إحدى قارئات الغيب فى أوراق اللعب ، وبناء على أرائها قرر البقاء .



الفهرس

الصفحة

الإهداء	٢
تمهيد إدريس أفندى (١٨٠٧ - ١٨٧٩)	
مؤرخ أهمله التاريخ	٥
مقدمة	١٧

الجزء الأول

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

القاهرة	٢٨
مناظر من الأسواق	٢٩
عدالة المحتسب	٣٣
الامن والعقوبات	٣٤
فن التجاره	٣٥
مئذات الباعة فى القاهرة	٣٦
الكيف	٣٨
الحريم	٣٩
زوج فرنسى - زوجات الشيخ حسن الجبرقى	٤٢
فى الحمام	٤٤
رذيلة تركية	٤٥
براويش	٤٦
حفلة ختان	٤٧
كرم ومرح وخلود	٤٨
العرس الحزين	٤٩
جولة فى شرقى الدلتا (١٨٣٦)	٥٢
دمياط	٥٥
الاتقياء والماجنون	٥٦
سورى فى تاريخ دمياط الحديث	٦١

صفحة

١٠٣	رثاء محمد على إبراهيم
	• عيسى باشا :
١٠٤	نشأته
١٠٦	سياسته
١٠٨	بغضه للأوربيين
	سعيد باشا :
١١٤	الابتهاج بتوليته
١١٥	وظيفة جديدة للجيش ١
١١٦	اهتمامه بمصالح مصر ١٢
١١٧	مصرع أحمد باشا
١١٨	١٥ يولية ١٨٥٨
١٢٠	كذب المنجمون

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٦ / ١٩٩١

الترقيم الدولي 1 — 0132 — 08 — 977 — ISBN

صفحة

من ذكرياتي في الاقصر	٦٣
الفلاح	٦٩

الجزء الثاني

من محمد علي إلى إسماعيل

محمد علي :

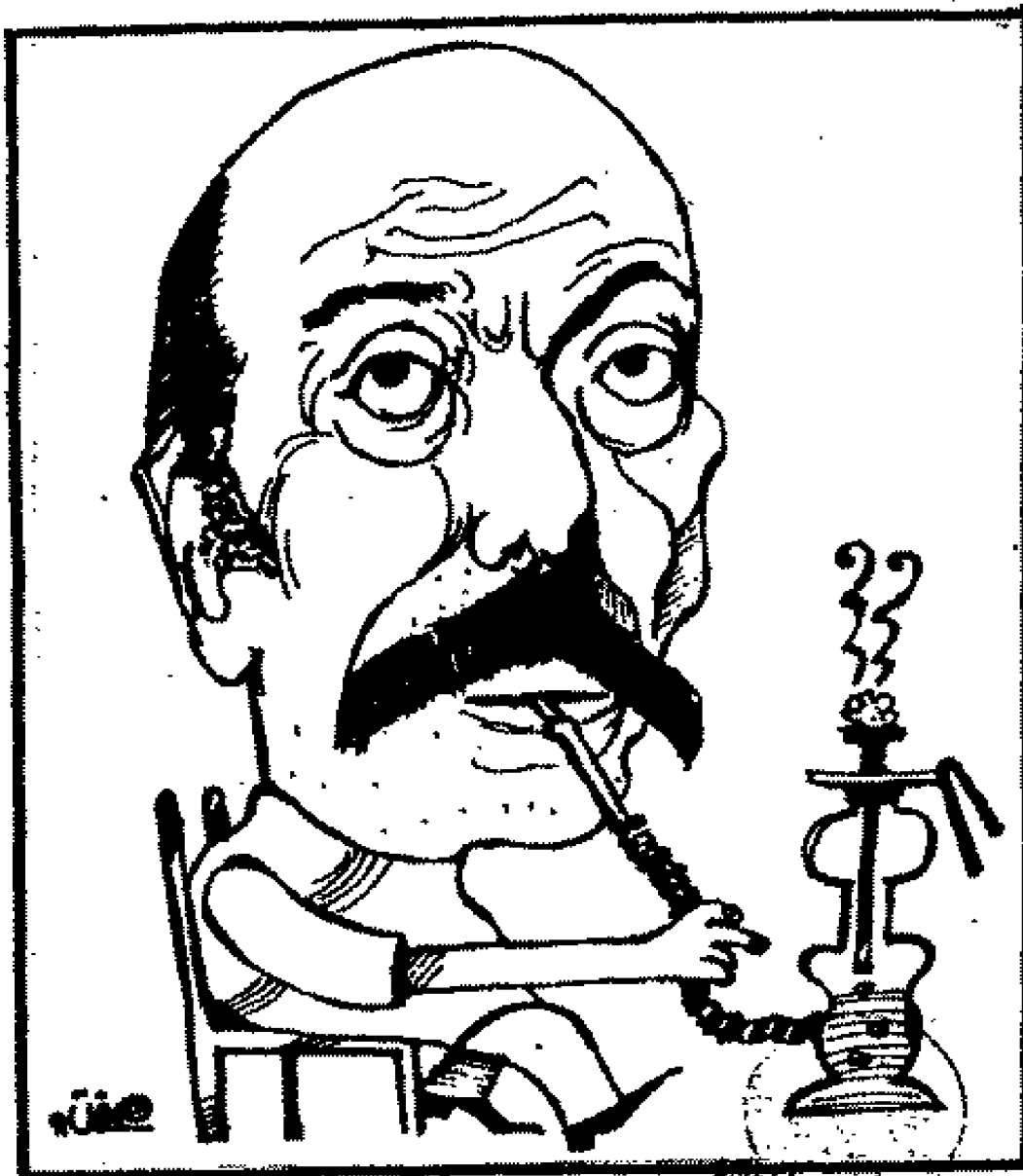
صورته	٧٦
شخصيته	٧٧
عصف الاستبداد	٧٨
ظالم باشا	٨١
واضع القانون ينتهكه	٨٢
دستور الابتزاز	٨٤
تدمير المعدات على حساب الجيش	٨٥
ثورة الصعيد (١٨٢٤)	٨٧
ابن « قولة » البئر	٨٩
اين تربية الشعب ؟	٩٢
اليؤس لمصر الغنية	٩٣
ماذا عمل لمصر ؟	٩٤
آخر أيام محمد علي	٩٥

إبراهيم باشا :

صورته	٩٨
مذبحة المماليك الثانية (إسنا - ١٨١٢)	٩٩
إبراهيم القائد	١٠٠

● كتساب اليوم ● عدد أغسطس

خمار من الشرق



للكتاب الساخر :

محمود السعدني

● ترقيب مسدوره ●



ساتكو المنظف العملاق ساتكو

بيد الذي يغسل ويظهر ويعطي بياضا ناصعا والوانا زاهية في آن واحد ..
بعد أبحاث علمية دقيقة شركة الإسكندرية للزيوت والصابون

إدريس أفندى فى مصر



منذ أكثر من ثلاثين عاما ، عثر
الدكتور أنور لوقا الأستاذ المصرى
بالجامعات الفرنسية على مذكرات
تاريخية هامة ضمن مؤلف ضخيم
بالفرنسية يتكون من أربعة عشر
مجلدا عن مصر ، للمهندس والفنان
والمستشرق الفرنسى بريس دافين
الذى وفد على مصر فى أواخر عهد

محمد على ، ومكث بها إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل ،
وخلال مقامه شهر إسلامه وسمى نفسه إدريس أفندى ،
وعايش الشعب المصرى ، ودرس التاريخ المصرى القديم ،
واتقن الهيروغليفية ، غير أن عمله الخالد يتمثل فى لوحاته
الرائعة للعمارة الإسلامية والفنون المختلفة ، والتي قدم فيها
إلى العالم ما خفى من جماليات الفن الإسلامى العظيم ، فى
مذكراته التى ترجمها الدكتور أنور لوقا وتنشر لأول مرة .
يكتب إدريس أفندى عن مصر بعين فنان ومحب ومتعاطف
مع الناس ، يرسم صورة للحياة اليومية ، للمجتمع ،
للتقاليد ، للعادات ، للأسواق ، إنها لوحة فريدة من أعظم
ماكتب إدريس أفندى (بريس دافين) بالكلمات .

■ جمال الفيضانى ■

To: www.al-mostafa.com